وائبني

اسم الكتاب: **وائيني**

اسم المؤلف: **رنيم عادل**

تدقيق لغوي: **هدية علي**

تصميم الغلاف: **محمد دربالة**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٧٤**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٥٥**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

رنيم عادل

وائِني

حب في زمن الكورونا

إبهار
للنشر و التوزيع

إهداء إلى :

كل من وجد نفسه منثورًا بين أحرف تلك الرواية، ترسمه، وتشاكل روحه، وتمازج النبض بقلبه...

إلى كل من وجد بها عبارات تحاكيه، وكلمات تشبهه، وأنفاس موجعة تئن بداخله...

إلى الحب، إلى المعين الذي لا ينضب، إلى المعنى المتجدد بالعطاء، إلى المعنى الذي ينبض بكل تلك المعاني الجميلة...

إلى كل من عشق، وكتم، وكفّ، وصبر...
أهدي هذه الكلمات..

"المقدمة"

إن الحب معنى سامٍ كبير قد سجنوه بين تلك الأحرف على عجل، ولو أرادوا ما وفوه قدره. الحب هو المعنى الأبدي للعطاء بلا مقابل، والمقابل بلا طلب. هو امتزاج الأرواح، واتحاد القلوب، ونسيان الأجساد التي تفنى وتبدد، الحب هو البوتقة التي تنصهر عندها جميع المعاني من وفاء وإخلاص، وصدق، وأمانة، وعطاء، واهتمام . كل هذه المعاني ابحث عنها لتجدها تسجد تحت عرش الحب في انقياد. الحب هو نفس أخرى تحيا بداخلك. عندما تفر من نفسك لتيمم نحوها. هو المكون السري حين لا يكون هناك مكون سري. هو أبعاض أنفاس سكنت إلى جوار بعضها لتكوِّن نفسًا واحدة، هو توافق السماء والأرض، والبحر والشجر. الحب هو الطاقة التي نولد معها وتنمو لتشاركنا بقية الحياة، هو من عجز دونه الشعراء، والكتاب والخطباء، وحالت أقلامهم دونه..

فسبحان من أوجد الحب! وسبحان من أسكنه القلوب، وغذى به المشاعر، وبثه في الأحاسيس النابضة.. وسبحان من فطر تلك القلوب عليه!

أقاصيص وحكايا، تجمع بين مزيج من التناقضات، ووابل من التضاربات، تبث الحب بداخلها، بعضها يُحيِ، بينما الآخر يميت. يصل بعضها إلى ساحة اليقين، والبعض يهلك في سراديب الغفلة، تحمل الأمل، وتسقي البؤس علقمًا.. لكن يبقى علينا أن نتذكر [إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين].

مضت تلك الليلة بتثاقل كبير، كأنها سرمدية، لا تتحرك فيها عقارب الساعة، رابط كل منهم عند محطته؛ فلا يتجاوزها إلا على استحياء. خيمت الكآبة على ذاك المكان الصغير، وأسدلت ستار الحزن والوجوم، فعلى الرغم من أجواء البهجة التي عمت أرجاء الصين التي تزينت بالأحمر واكتسته حلة لمعظم معالمها، والاحتفالات التي ضجت بها شوارعها، إلا أن "لي كين" يجلس بغرفته وحيدًا بجوار النافذة يراقب بفتور ما يحدث بالخارج، ينتظر حلول الصباح الباكر حتى يغادر "شنجهاي" ببريقها وحسنها الآسر إلى وجهته المعهودة في نفس الموعد من كل عام "ووهان". مشاعر لا يختبرها الشاب العشريني للمرة الأولي، فطالما أصابه الضجر من هذا السفر المعهود في كل عام، ولكنه ذاهب لا محالة فهذه أوامر أبيه التي لا يستطيع تجاوزها، كان دائمًا يحاول التعلل للبقاء مع عائلته في هذا اليوم إلا أن إصرار والده كان يدفعه لهذا الفراق؛ ليكون في مساعدة جده الهرم للاستعداد (للعام القمري الجديد)...

في الصباح، ومع أول شعاع أطلقته الشمس ليخترق القبة الزرقاء، أيقظت "أيكوو" فتاها الحبيب حتى لا يفوته موعد الحافلة، قامت بتحضير حقيبة من الهدايا، وبعض القناديل الحمراء، وحلوى العيد للجد، كتبت برقية على بطاقة معايدة كديدنها في كل عام، وسلة مليئة بالزهور. نظرت إلى ولدها نظرة طويلة ينبعث منها حنان ورقة يذيب جليد القطبين، ثم قالت بصوتها الرخيم: "لا تحزن يا بني، إن العمل الذي تقوم به الآن من أعظم الأعمال، فالإحسان إلى الخلق وإسعادهم في العيد فضيلة، يجب أن تكون فخورًا لاختصاصك بها من بين كل إخوتك، ثم إنك تعلم أن حالة الجد

الصحية لا تسمح له بالسفر، ومن واجبنا نحوه إعانته في أيامه الصعبة، كما حملنا بداخل قلبه من قبل. وحتى لو أنك كنت بعيدًا عن الديار، فمكانك هنا داخل القلب، فالحب يا صغيري لا يعرف المسافات، ولا تخترقه الأزمنة."

نظر كين إلى والدته ببعض من التردد قائلًا: "أنا لا أجد سببًا لبقائه هناك، ولا أؤمن بهذه الأعذار التي يتعلل بها على أية حال."

أجابت أيكوو على الفور: "لا يمكن أن تحكم على الأمر بتلك البساطة، فالسبب الذي يبقيه هناك هو السر في كل شيء، هو المكون السري حين لا يكون هناك، به يتآلف الخلق جميعًا، أتعلم! يومًا ما ستفهم ما أعنيه الآن، ستوضحه لأبنائك وأحفادك. ثم أشارت بإصبعها الدقيق نحو قلبه لتزيد: "عندما يطرق السحر هذا المكان؛ فلن تحتاج عندها للشرح أو التفسير، سيسير كل شيء في تناغم تام، كما تنساب المياه في الجدول."

نظر إليها الشاب بنصف طرفه الأسود حتى تنهي هذا النقاش الذي بدا غير مقتنع به، فابتسمت أيكوو تلك الابتسامة الملائكية الساحرة، وربتت بيدها الرقيقة على كتفه بلطف، ثم خلعت عن عنقها قلادة ما واضعة إياها حول عنق ولدها، معتقدة أن تلك التميمة ستحميه خلال الرحلة من الشر، وجلبت وعاءً يصدر عنه بعض الأبخرة لتطرد عنه الأرواح الشريرة، ثم عانقته وسارت بجواره نحو الباب الخارجي للمنزل وظلت تراقبه حتى توارى تمامًا عن الأنظار.

استقل كين الحافلة جالسًا بجوار أحد النوافذ، كان الطريق ممتلئًا بالبهجة والسرور، أناس ينظفون، وآخرون يزينون المكان، والبعض يوزع الحلوى والهدايا، كما كان الحال في الحافلة، أخرج كين كتابًا صغيرًا ليقرأه خلال الرحلة، ثم غلبه النعاس فلم يستيقظ إلا على صوت تلك الفتاة الصغيرة التي أتت لتخبره عن وصول الحافلة إلى المحطة الأخيرة، كانت تلك الابتسامة الصغيرة التي كشفت عن بعض حبات اللؤلؤ المتناثرة والزهرة البيضاء التي أهدتها له الفتاة ما أزاح عنه بعض الضجر، ونزع بعض الكآبة عن صدره قبل أن يصل إلى بيت الجد.

وصل كين إلى بيت جده فوجده ككل أعوامه السابقة جالسًا بجانب شجرة الدراق الكبيرة، يتأمل أزهارها ويحدثها، ثم ينظم قصيدة لجدته الراحلة، على أن ينشدها على قبرها يوم العيد كعادته كل عام.

سار نحو جده ببطء شديد، فإذا بالجد يفاجئه:

"لي كين، توقف عن ذلك، أعلم أنك هنا."

ثم يلتفت العجوز نحو حفيده، يستند على قدمه الثالثة، مبتسمًا كعادته، فتنحسر شفتاه عن بعض أسنانه المتخلخلة، ويمسح بيده على تلك الشعيرات المترامية هنا وهناك بلحيته، قد غطى الشيب ما تبقى من شعر رأسه المتساقط، يرفع يديه المرتعشتين نحو حفيده، ثم يعانقه مخبرًا إياه عن شوقه له، وانتظاره الطويل لحضوره، ثم يسيران نحو منزل الجد.

بالداخل، كان كل شيء على أحسن مما يرام، البيت مرتبًا ومنظفًا بالكامل، تنبعث منه رائحة خشب الصندل، وأزهار قد نثرت هنا وهناك، الطعام معد، نظر كين إلى جده بدهشة قائلًا:

"أرى أنك قد أنجزت كل المهمات."

ثم مازحه بقوله: "هل استبدلت مساعدك يا جدي؟"

ابتسم الجد وقال: "ليس الأمر كذلك، إنهم بعض الشبان والشابات قد أنشأوا مجموعة تدعى "حديقة الإحسان" يقومون بمساعدة العجزة والمرضى والأطفال المشردين وما سوى ذلك، وإن قائدة هذه المجموعة هي فتاة بالجوار، تمر عليَّ أثناء جلوسي في الحديقة من وقت لآخر، وقد فاجأتني بطلب تقديم المساعدة، ولكني تركتً أهم شيء حتى ننجزه سويًا."

_كين:

وما هو؟

_ إنه غسل ثوب الزفاف الخاص بجدتك، وأنت ستقوم بكويه بمفردك فأنا لم أعد أستطيع الأمر، وبينما تقوم بذلك، سأسمعك القصيدة التي نظمتها هذا العام.

_ ابتسم الشاب مردفًا: حسنًا يا جدي، لك ما تريد، فقط اسمح لي أن أستريح قليلًا، ثم نتفرغ لذلك مساءً.

ابتسم الجد كعلامة للموافقة، ومضى كين نحو غرفته، استلقى على السرير وراح يفكر في هذا الحب الذي يحيا به جده إلى الآن، لا يترك منزله، ولم يغير شيئًا عن مكانه، يحتفظ بكل أغراض جدته، صغيرها قبل الكبير منها، حتى أرواق الحلوى التي كانت تفضلها. يغسل ثيابها ويعطرها، ويذهب لزيارتها. ينظم فيها أشعارًا وقد وراها التراب منذ أعوام مضت، أي حب هذا! إنه بالأحرى مرض، أو لعنة تصيب حاملها وتظل تفتك به حتى يموت، أو حتى يسحقه جوى العشق، ويحيا بين العالم كسقيم قد عز شفاؤه، وندرت علته، فلا هو حي فيُشفى ولا ميت فيرجى، هل من الطبيعي أن يبقى الحب وإن كان المحبوب رفاتًا! هل تنبض تلك القلوب لمن لا تراه عيونها! كيف لا ينسى هذا العجوز هذا العشق البائس، والألم العاتي، ما هذه الصبابة الملهبة التي سطت عليه فسلبته عقله، وقلبه؟! اعتقد كين أن الحب يفضي بصاحبه إلى الجنون، إلا أن جده كان ذا بصيرة نافذة، وحكمة بالغة، جعلته يستبعد تلك الفكرة عن خاطره، لكنه كان يجهل السبب الحقيقي وراء ذلك، لأنه لم يعرفه من قبل وليس من راءٍ كمن سمع. مرت الدقائق على عجل، واستقرت الساعة لتشير إلى الخامسة عصرًا، سار الجد وطرق باب الغرفة، فاستيقظ على إثره كين، فدعاه الجد لتناول الغذاء..

خرج كين من غرفته، وتوجَّه نحو طاولة صغيرة في إحدى زوايا الحديقة اعتاد الجد تناول الطعام هناك كما كان حاله مع حبيبته "يوكو" في الماضي، جلسا يتناولان الطعام وفي خلال ذلك نظر كين إلى جده قائلًا: "كيف استطعت تحمل كل ذلك الألم طوال تلك السنوات، وكيف تتحمله حتى الآن؟"

اندهش الجد قليلًا من سؤال حفيده الذي أتى على غير موعد، ثم قال بعد أن قطب حاجبيه قليلًا: "أنا لا أدري، عن أي ألم تتحدث؟"

_ هذا الذي تسميه الحب، هل تستطيع أن تفسر لي احتفاظك بأغراض امرأة قد توفِّيَت منذ ثلاثين عامًا، هل يعقل هذا؟"

رد الجد بعد تنهد ناظرًا إلى حفيده ليقول: "إن ما تتحدث عنه الآن ليس ألمًا على الإطلاق، إنه عذوبة الوصل، وجميل ذكرى المحبوب، إنني منذ أن عرفت جدتك لم أتخيل أن أفارقها قط، ولم أَعِ وقتها صفعات الأقدار، لكنني لا زلت على العهد إلى الآن، وسأظل حتى ألتقي بها. إن الحب يا ولدي معنى سامٍ كبير قد سجنوه بين تلك الأحرف على عجل، ولو أرادوا ما وفوه قدره. الحب هو المعنى الأبدي للعطاء بلا مقابل، والمقابل بلا طلب، هو امتزاج الأرواح، واتحاد القلوب، ونسيان الأجساد التي تفنى وتبدد، الحب هو البوتقة التي تنصهر عندها جميع المعاني من وفاء وإخلاص، وصدق، وأمانة، وعطاء، واهتمام، كل هذه المعاني ابحث عنها لتجدها تسجد تحت عرش الحب في طواعية وانقياد، انظر إلى تلك الأزهار كيف تراصت فيما بينها في اعتدال وانحنت أغصانها عليها بتلك الرقة لتحميها بأشواكها، هل دفعها لغير ذلك سوى الحبظ؟! وهذه الأشواك التي وصفتها لتوك بالآلام هل تحيا الزهرة وتُحفظ وتُصان بدونها! فالزهرة هي الحب، والأشواك هي لذَّاته، وسبل وصاله. الحب هو الطاقة التي نولد معها وتنمو لتشاركنا بقية الحياة، هي العلاقة التي تربطك بأمك وإخوتك وهي ما دفعك لتقطع هذه المسافة حتى تصل إلى هذا العجوز الآن، لذا يا صغيري، أرجوك لا تعبث بمكونات الطبيعة حتى لا تسبب

خللًا بيئيًا." قالها الجد مازحًا مبتسمًا بوجه حفيده؛ حتى يدفعه لاستيعاب ما قال.

فرك كين جبهته وأخذ شهيقًا طويلًا ثم قال: "سأحاول التفكير في الأمر، والآن استأذنك سأخرج لأقوم بجولة في المدينة، وأعود لأسمع قصيدتك في المساء، فأنا لم أنسَ الأمر."

ثم حمل كين حقيبة ظهره وعدل من ملابسه قليلًا وسار باتجاه الطريق العام.

لم يُرِدْ كين أن يستقل سيارة أو حافلة. قرر أن يقوم بالجولة هذه المرة سيرًا فربما يسعه التفكير فيما قالته والدته قبل رحيله، ثم أتى الجد "كواشي" ليؤكد هذا الأمر، فراح يسأل ذاته هل هناك من البشر من يستحق أن أضحي بحياتي لأجله، لا بل أضحي بوقتي لأجله؟ أفكر فيه وأحل له مشكلاته، وأسانده في نجاحه، وأعينه في مرضه وكل هذا!

شخص يأتي من الفراغ ليحتل القسم الأكبر في قلبي وكياني بأكمله! هل حقًا هذا هو الحب! إن الأمر يستحق التفكير فماذا سيضيف لحياتي في المقابل حتى أهبه حياتي بهذه البساطة، لا بد أن هؤلاء العاشقين حمقى، أو هم كذلك بالفعل، أنا لا أنكر أني أحب أمي وأبي وإخوتي ورفاقي، أحب الطبيعة والجمال، أحب عملي، نعم بل أنا مغرم حقًا بتلك الهندسة الوراثية، لكن هذا الحب الذي يقطعون فيه النذور والعهود تلك ربما ليس له مكانًا في قلبي، أو أن الجزء الخاص به قد شغل بشيء آخر. نعم أنا طبيعي جدًا ولا بأس بي إنهم فقط..."

لم يكمل كين جملته الأخيرة حتى اصطدم بأحدهم، فسقط هاتفه المحمول على الأرض، سارع بالتقاطه ثم اعتدل ليجد فتاة تبكي كطفلة صغيرة قد أضاعت والدتها، تغطي نصف وجهها بيدها خجلًا وتنفجر في البكاء، أشاحت بنظرها أرضًا، وباتت تردد كلمات متلعثمة لم يفهم كين منها شيئًا سوى أنها بدت كاعتذار على أنها اصطدمت به، وأنها لم تكن منتبهة فقد كانت تطارد شيئًا ما. استطاع كين أن يخمن أنها فراشة من خلال لفظها للحروف، أشار بيده ألا بأس، فأومأت برأسها ثم هرولت مسرعة تغادر المكان وهي على ذات الحالة من البكاء، وقف كين للحظة أخذته الدهشة مما حدث، من هذه الفتاة، ولم البكاء؟ إنه أمر لربما يحدث يوميًا في مرامي الصين الواسعة، لكن ردة الفعل هذه غريبة. ثم عاد ليكمل مسيره وينهي الحوار الذي بدأه مع نفسه، حاول أن يتذكر إلى أين قد انتهى فلم يستطع ذلك، كانت تلك البراءة والحياء البالغ ما أنساه حواره السابق، كما كانت الشمس تلوح بالغروب، وترسل ما تبقى من حمرتها الفاتنة لتداعب صفحات (اليانجستي)، فقرر العودة للمنزل حتى لا يتأخر على موعد الجد (كواشي).

وصل كين إلى المنزل فوجد الجد بانتظاره وقد أعد كل شيء يختص بتلك الطقوس، جلب (الأرهو) القديمة وأشعل الشموع الحمراء. أضاف البخور والعطور، وأحضر الكرسي الخاص بجدته المصنوع من خشب الخيزران، وضع ثياب العرس خاصتها عليه، ولم ينسَ أن يحضر حذائها الذهبي الملون، وجلس إلى جوار المدفأة يتفقد عقارب الساعة التي تشير إلى حضور كين، أومأ كين برأسه ليحيي جده ولم يتكلم هيبةً للموقف،

أسند حقيبته إلى المكان المخصص لها، وأغلق هاتفه النقال، وجلس بهدوء إلى جوار جده الذي ابتسم له كعلامة على البدء. تناول الجد تلك الآلة ذات الأوتار العتيقة وأنشد يقول:

يا نور الشمس الذي أضاء حياتي

وأزاح الهم في أحلك ظلماتي

يا زهرة اللوتس التي سحرتني

وأيقظتني في عثراتي

أنتِ الأنوار التي هدتني

وأشعلت بنورها خطواتي

أنتِ لحن الحياة يا حبيبتي

فحبكِ أقصى أمنياتي

أنتِ زهرة البقاء في عالمي

فأشرقي لتشرق الأيامي

أهديكِ العيد يا عالمي

وإن كنتِ أجمل أعيادي

ثم ضم يديه وأغمض عينيه ليقوم ببعض الدعوات والصلوات على ما يبدو، ساد الصمت لبضع دقائق ثم قام الجد وطلب أن يشعل كين

المصابيح ويساعده في تحضير طعام العشاء بسرعة حتى يتسنى لهم الخروج للاحتفال.

أثناء إعداد الطعام أبدى كين إعجابه بالقصيدة التي أنشدها جده، وكم أنها جميلة تحمل معانٍ غير محسوسة كما يفعل البعض فأجاب الجد: "إن الجمال هو ما نشعر به لا ما نراه، وإلا كيف يمكن للأعمى أن يستشعر الجمال فيما حوله، وهذه نعمة لا يسلبها الخالق أحدًا من خلقه، الجمال ما يحيا وتزيده الأيام، لا ما يفنى وتهلكه السنوات. وأنا أراها جميلة حتى وإن كانت حفنة من التراب، تكفيني روحها تلك التي تنسيني أصعب الأزمات."

ثم يضع آخر طبق على الطاولة ويردف: "هيا يا بني، لقد أعددت كل الوجبات التي كانت تحبها "يوكو". فيجب ألا ندعها تنتظر، يضحك الشاب ثم يساعد جده على الجلوس ويجلس إلى جواره. في تلك الأثناء يبدو كين شاردًا جدًا يعبث بعصاه الخشبية في الطبق يمنة ويسرة ولا يتناول شيئًا، فيسأله الجد: "تُرى ما هو سبب عدم تناولك للطعام، أهو سيء لهذه الدرجة؟ كين." ويردد: "كين يا بني.."

قام كين بتحريك رأسه مسرعًا، وأغلق عينيه وفتحهما قائلًا: "أعتذر يا جدي؛ فأنا لم أكن منتبهًا.. في الواقع لقد كنت أفكر فيما حدث معي اليوم على الجسر."

ثم يرسل الفتى ناظريه نحو النافذة المطلة على الحديقة ليقول: "لقد كانت هناك فتاة أظنها خرقاء بالكامل. كانت تسير خلف فراشة ما تتابعها غير

منتبهة لما حولها، حتى كادت أن تهوي من أعلى الجسر؛ من فرط انغماسها لما كانت تفعل، فاصطدمت بي، فدفعتها بيدي نحو الاتجاه المعاكس. انحيت لألتقط هاتفي، ثم أسرعت باتجاهها، لأرى كيف حالها، وعندما وقفت توقعت أن تشكرني، أو تصيح بوجهي كما تفعل الأخريات لكنها بدلًا عن ذلك انفجرت في البكاء كطفلة أضاعت أمها في الزحام واعتذرت مني ثم فرت هاربة، هل يعقل هذا؟"

ابتسم الجد ابتسامة عريضة ثم قال: "هكذا تبدو الفتيات التي تستحق الحب يا ولدي."

_كين مندهشًا: "حمقاوات!"

_لا يا ولدي، بل لك أن تقول ذوات حياء، وخجل.

_حياء! هل هذا كل ما في الأمر؟

_ أخبرني يا ولدي، هل ما تراه في الشارع من فتيات قد تصبغت وجوههن بالمساحيق المختلفة حتى أصبحت لا تعرف هويتهن الحقيقية، أو اللاتي ارتدين الثياب القصيرة والممزقة هؤلاء هن من تحُزْنَ الحب!

_ ليس الأمر كذلك يا جدي، لكن الجمال مطلوب أيضًا.

_ يا بني، سبق أن قلت لك الجمال ما نشعر به لا ما نراه، فإذا اقترن ما نراه بما نشعر به فهو عين الكمال، وهذا لا يحدث سوى مرة واحدة، حين نقع في الحب، فالمحب يرى أن الجمال قد اقتطع وأخذ من محبوبه، يراه جميلًا في كل شيء وبأية صورة وهيئة وعلى كل حال، سيظل يبحث عن جماله

اللا متناهي حتى في أبشع صوره وأقبحها، وهذه هي عين المحب التي لا ترى سوى الجمال فيمن تحب.

_ يبدو كلامك مقنعًا في هذه المرة يا جدي.

_الجد: إذًا ما هي صفات تلك الحسناء؟

_ كين بعد لحظة من الصمت والتفكير: "لقد كانت طفلة في صورة فتاة، تحمل بداخلها ذلك النقاء الطفولي، وبراءة الكائنات الصغيرة وإن بدت في صورة فتاة، عينان لوزيتان مزيدتان باتساع جميل، تحملان لونًا بندقيًّا دافئًا، ووجهًا مستديرًا مشرقًا، تحسبه الدر، ولم أرَ بقية وجهها لأنها كانت تغطيه بيدها بينما تنهمر في البكاء، كانت ترتدي غطاءً للرأس، وجلبابًا واسعًا باللون الأزرق الداكن.

_الجد مقاطعًا هذا الشرود: هي مسلمة إذًا؟

_ وماذا يعني ذلك؟

_ يعني الكثير، فالمسلمون على الرغم من الحب والصفاء الذي يتمتعون به، والأخلاق الفاضلة والقيم التي يمثلونها؛ إلا أنهم لا يتزوجون من أصحاب الديانات الأخرى مطلقًا، فانسَ الأمر تمامًا، وإلا كان يجول بخاطرك أن تغير معتقداتك.

_ كين مازحًا: لم يصل الأمر لتلك المرحلة بعد، أظنني لم أتجاوز حدود الإعجاب والذي سرعان ما سيزول.

_ربما كان الأمر كما تقول، وربما يخبأ لك القدر شيئًا آخر.

_ هيا بنا يا جدي، سنفوت على أنفسنا رقصة التنين.

خرج كين بصحبة الجد لحضور مهرجان رأس العام القمري، كانت الطرقات مزدحمة بسكان مقاطعة ووهان، علقت أعداد هائلة من القناديل الحمراء على طول الطريق، اكتسى الجميع ملابس جميلة يغلب عليها اللون الأحمر، قدم البعض رقصات شعبية وفلكلورية قديمة، كما لم يغفلوا عن تقديم استعراض هائل يجسد السبب وراء الاحتفال بالعام القمري، كان الجد يراقب بسعادة غامرة، يتطلع لكل فقرة مقدمة، كل زي، كل أغنية، كأنه أول عيد له على الرغم من كونه الثمانين. أما عن لي كين فقد أخذته ذاكرته إلى مكان آخر، المكان حيث التقى بالفراشة الأولى في حياته، فقد كان واقع الفتيات في الاحتفال هو ما أيقظ ذهنه للتفكير في تلك الحسناء التي تجملت بالحياء قبل كل جمال. مر الوقت وجاءت الفقرة المنشودة التي خرج الجمع لانتظارها، أطل تنين ضخم لونه أحمر لامع، تتخلله تلك النقوش الذهبية التي تمثل الزخارف هناك وهناك، يلتوي يمينًا ويسارًا في حركة متناغمة انسيابية، يزفر اللهب من آن لآخر، يفسح له الجميع المكان حتى يختتم الرقصة، صفق الجد وكين عاليًا تحية لمؤدي الرقصة من شباب مقاطعة ووهان، تبعت هذه الفقرة رقصة على غرارها ولكنها لأسد، كان الوقت قد تأخر وبدأ الجد الثمانيني يشعر بالتعب والإرهاق؛ فساعده الشاب على النهوض ومغادرة الجمع، عادا سويًا أدراجهما للمنزل، لكنهما لم ينسيا المحافظة على الطقس الخاص بيوكو وهو توزيع الحلوى على كل من يقابلهم، وتمني الأمنيات السعيدة. ظل

الجد مستيقظا طوال الليل كما كان يفعل مع حبيبته في السابق، يتلو القصائد ويتناول شاي الزنجبيل، أما كين فقد آثر الخلود للنوم..

في الصباح التالي حرص الجد على فتح جميع النوافذ والستائر في المنزل لاستقبال العام الجديد، واصطحب باقة من زهور الجوري الحمراء المحاطة بزهور الياسمين، وقصيدته السالفة منقوشة بمداد مزج بعطر الأوركيد على قطعة حريرية حمراء لامعة، كما أخذ علبة من كعك الأرز، واتكأ على عكازته قاصدًا قبر حبيبته يوكو؛ حتى تكون أول من يقابل في السنة الجديدة..

استيقظ لي كين على أشعة الشمس المخترقة لزجاج نافذته الصغيرة، ضاربًا المرآة التي عكست أضواءها على سائر أرجاء الغرفة، كان الشاب العشريني لا يزال يشعر بالنعاس، يفرك عينيه وجبهته محاولًا الاستيقاظ، يحاول ترتيب الخصلات الهاربة من شعره، وتعديل ملابسه أثناء سيره بالمنزل ونداءه: "جدي، جدي، هل أنت هنا؟"

لفت انتباهه صوت من يطرق الباب وينادي: "جدي هو الآخر."

توجه ذلك الناعس ليجيب، فتح الباب فإذا بها تلك الفراشة، هم كين بإغلاق الباب ظنًا منه أنه مجرد تخيل لكن صوت الفتاة وهي تقول: "أنت!" هو ما دفعه للتراجع عن الأمر، كانت الفتاة في حالة ارتباك تام، وضعت العلبة بيديها المترتعشتين أمام الباب، وغادرت مسرعة. تجمدت أهداب كين لا تقوى على الانغلاق تراقب تلك الريحانة ترفل بحيائها في ثوبها الأرجواني، تبتعد شيئًا فشيئًا فتترك العبق والشذى، تبتعد هذه المرة

وقد أخذت معها جزءًا لا بأس به من قلب واهتمام جاحد الحب هذا. ظل الشاب مرتكزًا بيده على أحد جوانب الباب يراقب الجادة التي ذهبت تجاهها الفتاة يؤمل أنه حلم وربما عادت، أو حقيقة فيتبعها إلى هناك، ظل يرتل ترانيم اللقاء القصير الذي حول حياته، ومتعقداته، ومكنونات نفسه التي حارب للحفاظ عليها طيلة أعوامه السابقة، شاردًا مذهولًا مأسورًا لحب لم يكن يومًا بأحد مدوناته وحسابات عمره، ظل هكذا حتى هزه الجد كواشي برفق قائلًا: "لي كين، هل هناك خطب ما؟"

_أجاب بارتباك: خطب! لا يا جدي.

_ إذًا ما الأمر، فأنا هنا منذ بضع دقائق وأنت لم تلاحظ وجودي حتى، من أحضر تلك العلبة هناك؟

هنا انتفض قلب الشاب من سباته وأخذ ينبض مسرعًا كالخيل العاديات، فأجاب وهو في حالة من الهذيان: "إنها الفراشة، أعني الخرقاء التي كانت تطارد الفراشة أعلى الجسر."

_الجد بعد أن أخذ شهيقًا طويلًا: إذًا، هي السبب "سوكيي"

_ سوكيي! أتعرفها يا جدي؟

_ نعم، إنها التي قامت بترتيب المنزل مع بعض من رفيقاتها، وهي مؤسسة لجمعية خيرية لمساعدة العجزة والمحتاجين. حقًا لم أعرف أنك قابلت سوكيي، ولكن الفتاة خليقة حقًا بهذا الذي أراه بعينك الآن.

_ عن أي شيء تتحدث يا جدي، تلك الخرقاء لم تلبث أن تراني حتى اتسعت حدقتاها كأنما صادفت وحشًا، وضعت العلبة وتوارت عن الأنظار

في لحظات، حقًا لو لم تكن هذه العلبة موجودة هنا لما أيقنت أن هناك أحدًا بالفعل.

أخذ الجد بيد حفيده نحو مقعد خشبي صغير تحت شجرة الدراق ثم قال:

- إن ما أراه اليوم هو بذور الإعجاب الأولى التي تحتاج إلى الكثير والكثير من الصبر، والاهتمام، والشدائد حتى تثمر بالنهاية.

_ وهل كل حب مرتبط بالشدائد؟

_ ليست شدائد، لكن لك أن تسميها (اختبارات الخلود) فهذه الاختبارات هي التي تخلد حب أصحابها عبر القرون والأزمان، الحب هو التضحية الأولى والأخيرة في الحياة يا بني.

_ تضحية!

_نعم، هل تعرف تلك الأسطورة القديمة عن الإمبراطور والوصيفة التي أحبته حتى بلغ شغاف قلبها؟

_ لا، ولكن أسمعني إياها.

_ كان فيما مضى إمبراطورًا عظيمًا قد برع في كل شيء، وأرسى السلام والرخاء في شعبه، حتى تآمر عليه الوشاة خفية، وأرسلوا بمحظية إلى بلاط القصر يولع بها الإمبراطور حتى يطمأن إليها، وتقوم بتسميمه بعدها فلا يشك بها أحد وبذلك يهنأ لهم الحال. وكانت (يونج سومي) وصيفة بسيطة في البلاط، قد عشقت الإمبراطور وأغرمت به حتى صارت لا ترى غيره في هذه الدنيا. كانت ذكية فطنة، سريعة البديهة، وذهنها متوقد للغاية،

استطاعت أن ترى ذلك الحب الزائف وتترجم نار الخديعة التي تنوي تلك المحظية إشعالها؛ فأخذت تراقبها دون أن تدري. لم يلتفت لها الأمبراطور يومًا، ولم يلحظ حبها حتى، لكنه كان يعلم صدق قلب هذه الفتاة، إلى أن جاء أحد الأيام واشتهى الإمبراطور بعض البارسيمون المجفف، اقتنصت المحظية تلك الفرصة لأنها تضمن أن الإمبراطور سيتناوله وبعد أن تم اختبار الطعام من قبل كبار الوزراء، دست فيه زجاجةَ كاملةَ من سم أفعى الكوبرا المميت. علمت الفتاة بذلك، فأسرعت نحو البلاط الملكي لتجيب عن أحجية المسابقة التي أعلن عنها الإمبراطور، وكان من غاية العجب لديه طلبها أن تكون الجائزة ذلك الطبق من البارسيمون كاملًا، إنها جائزة بسيطة وفي متناول الجميع، فلم عساها تطلبها الفتاة! ولكنه أعطاها إياها على كل حال، أخذت الفتاة الطبق ونار الحسرة تتأجج في صدر المحظية أمامها، يظهر عليها الارتباك والتوتر، تناولت الفتاة الطبق بأكمله، غادرت البلاط وهو تجر أقدامها ولا تقوى على المسير، وما إن تجاوزت عتباته بأمتار يسيرة حتى بدأت تلفظ الدماء من فمها وتنزف أنفها بشدة، أخرجت منديلًا من القماش كان قد أعطاه لها الإمبراطور ذات مرة وغطت به تلك الآثار، أخذت تزحف حتى وصلت إلى بركة اللوتس في القصر، هناك حيث أشرق القمر، وذابت أضواؤه في المياه المتلألأة، تلت الفتاة نذور العشق الخاصة بها أعلى الجسر المرصع بزهور الياسمين إلى أن فاضت روحها وسقطت في البركة بين تلك الأزهار وإن كانت أجمل زهرة في هذا البستان! بعدها أحس الإمبراطور بشيء من الريبة في الأمر، أرسل في طلبها فلم يجدها، أمر حراسه بالبحث عنها في كل مكان، حتى توصلوا

بالنهاية إلى مكانها وسط البركة، أصر الإمبراطور على إخراجها بنفسه، حملها إلى الخارج تسيل منها الدماء ممسكة بمنديله، فوضعها على الأرض، وأخذ يصيح بمرارة على فقدها، كانت المرة الأولى التي أعربت فيها عن حبها، ولكنها الأخيرة وبكل أسف. أعلن الإمبراطور هذا اليوم حدادًا على روحها، وصار ذكرى سنوية لها في كل عام، أقام لحدًا لها بجوار البركة، وأقسم على ألا يحب فتاة بعدها حتى الموت؛ فقد أنقذت حياته، ومملكته، وقلبه من العشق المزيف، وصارت هذه الرواية دستورًا يحكى حتى اليوم في التضحية، والحب في جميع أرجاء البلاد.

_ كين بعد أن تنهد طويلًا: جميلة، لكنها تبقى أسطورة وليست حقيقة.

_ الجد بنبرة حازمة: لكن هذه الأساطير خلاصة الحكمة، نستخلص منها الدروس والعبر، والكثير منها حقيقة في الواقع.

نظر كين إلى نبتات البابونج الصغيرة التي تفترش الأرض بجواره ثم همس يحدث نفسه: ولكن هل تنظر إليَّ سوكيي تلك؟

ضحك الجد، وربت على كتف حفيده قائلًا: في الو اقع هي ليست سوكيي؟

_كين مندهشًا: ومن تكون إذًا؟

_ لقد أطلقت عليها هذا الاسم لأنها تحمل معناه، وبما تملك من رقة ونقاء وعذوبة، رغم ما تعرضت له من الألم في صغرها، إن هذه الفتاة هي الممثل الأروع للزهرة حين تنبت في الصخر.

_ وماذا قد حدث؟

_تنهد الجد طويلًا، ثم أردف: لقد توفي والدها في حادث قطار وهي بعمر العامين، ثم انتقلت مع إخوتها لتعيش في كنف جدتها العجوز التي اهتمت بها وقامت برعايتها، وعلى الرغم من أن الجدة لها معتقدات بوذية؛ إلا أن الفطرة النقية للفتاة استطاعت توجيهها بكل بساطة نحو الإسلام، وهو ديانة والديها.

_وضع " كين" إصبعه في منتصف عينيه، وقام بتعديلها قائلًا: وهل تعتقد أن ثمة علاقة بين الإسلام، وبين الحياء والنقاء التي تتمتع به الفتاة؟

_نعم، وبكل تأكيد، إن الإسلام هو دين العفة والحياء والنقاء الروحي، ولقد روي عن الأجداد قديمًا أن السبب الأول في دخول الإسلام الصين كانت الأخلاق الفاضلة التي تحلى بها المسلمون، هذه الأخلاق لها مفعول أقوى من السحر، لقد مكنت تعاليم الإسلام من دخوله إلى كافة أرجاء الأرض، وقد ملكت شخصية نبيهم قلبي، إنها النموذج الأمثل في كل شيء، تخيل لو أننا تحت حكمه هذا اليوم، لكنا قوة لا ولن تُضاهى.

_ يرفع كين حاجبيه استنكارًا لما يسمعه قائلًا: ولكني لا أرى اليوم شيئًا مما تقصه اليوم في أي بلد إسلامي، فما الذي غيَّر الحال؟

_ نكس الجد رأسه، وأضاف بنبرة يكتنفها الأسى: لقد صاروا كما وصفت، لأنهم تركوا ما ذكرت لك، إن كتابهم المقدس يحوي من التعاليم والدروس والعبر ما تقوم به الدنيا، وينصلح به فساد العالم، ولكنهم وبكل أسف انخرطوا في المادِّية البحتة؛ حتى تخلفوا في ركب الإنسانية والأمم، وبعد أن كانوا حكام العالم أصبحوا اليوم يبكون في صمت أمجاد ماضيهم،

ولكنهم قادرون لا محالة ينقصهم فقط القليل من التدبر، والعودة إلى تعاليم الغرس الأول من الإسلام.

ـجدي، هيا بنا للداخل، أريد أن أستريح قليلًا حتى يتسنى لي الخروج مساءً أودع ووهان، فأنا سأرحل في الصباح الباكر.

إذا كان الأمر كما ذكر جدي، فلمَ لم يعتنق تعاليم هذا الدين، إن هذه الأخلاق والمبادئ هي ما يحتاجها العالم للوصول إلى حالة مثلى في الرقي والتقدم والحضارة والسلام، هي بمثابة خارطة إرشادية نحو كنز الاستقرار النفسي والمادي والروحي، ربما أنها السبب فيما تشعر به تلك الفتاة من السلام الداخلي، لقد مارست طقوس اليوجا مرارًا وتكرارًا فلم أجد نصف ما تتمتع به الفتاة من الصفاء. ترى هل يقدر هذا الدين على جعلي سعيدًا مطمئن النفس؟ ثم انقطع التفكير لبرهة من الوقت ليضيف من جديد ما الذي تحاول أن تفعله أيها العقل؟ هل بت تقنعني الآن باعتناق الإسلام؟ بالأمس الحب واليوم الإسلام، ربما نقلت إلى تلك الفتاة شيء من الخرق عندما اصطدمت بي...

كلمات كان يرددها (لي كين) في نفسه عندما كان يعد حقيبة أغراضه للمغادرة في الصباح التالي، يحاول أن يستعيد شيئًا من كين القديم، ينظر إلى دفتر يومياته، بعضًا من تجاربه التي هو بصدد إجرائها، الجدول الزمني الذي أعده للعام الجديد، المطوية التي صنعها في صغره كدعوة لحضور تسلمه لجائزة نوبِل الخاصة به، يغمض عينيه بشدة لثانيتين ثم يقول بصوت مسموع:

-"لي كين" أظن أن عليك الاستيقاظ الآن؛ فإنها إجازة عابرة ستمضي، وستمضي معها تلك الذكريات، وتبقى كطيف جميل يشعرنا بالفرح في أوقات الضيق، والحزن. الآن سأنسى كل شيء، أنا" لي كين" عالم الهندسة الوراثية المنتظر وهذا كل شيء.

في الواقع لم يكن "لي كين" وحده من يفكر في الأمر، ويحاول جاهدًا نسيانيه؛ فتلك الفتاة هي الأخرى ترتجف يداها من التوتر، تتلعثم في الكلمات كطفلة تتعلم الهجاء. تروي قصتها إلى صديقتها المقربة (يوري) قائلة:

-لقد حاولت جاهدة أن أنسى ما حدث عند الجسر، وما إن بدأت أتناسى الأمر شيئًا فشيئًا، إذ يظهر هذا الشبح ثانية الآن في منزل الجد (كواشيي).

ثم تردف بصوت متقطع النغمات:

-نعم، فأنا متأكدة أنه كان هو، ذلك الشاب الغريب ذو النظارة الشبيه بعالم مفتون بنظريات الفيزياء، أو ما شابه.

تعطي" يوري" كوبًا من الماء لرفيقتها قائلة:

-إن ما حدث قد حدث وانتهى، وعلى فرض أنه كان ببيت الجد؛ فلا بد أنها زيارة بمناسبة العام الجديد وستنتهي، وبمرور الوقت ستنسي كل شيء ويزول مع الأيام، ولو أن كل منا وقف عند أحزانه وإخفاقاته بالحياة، لم يتقدم خطوة واحدة.

ثم ابتسمت قائلة: "سيكون كل شيء بخير."

كانت يوري بمثابة الملاذ الآمن لتلك الفتاة، فعلى الرغم من اختلاف عمريهما إلا أنهما كانتا مقربتين للغاية، كانت بمثابة مستودع أسرارها، وحصنها الأول الذي تلجأ إليه عند الشدائد في هذه المدينة الكبيرة التي لا يربطها بها سوى جدتها العجوز.

وقفت الفتاة تراقب شمس الأصيل من النافذة المجاورة، وملأت رئتيها بشهيق طويل سمحت له أن يخرج ببطء ورددت معه: "نعم، سيكون كل شيء بخير."

في الجادة المقابلة يطرق الجد (كواشيي) باب الغرفة ويردد:

-"لي كين" لقد تأخرت يا بني، توشك الشمس على الغروب، ألم تخبرني بأنك ترغب في مشاهدته من أعلى الجسر، لي كين.

استيقظ كين مرهقًا للغاية، ربما لفرط تفكيره لم يستطع أن يحظى بنوم هانيء، أشار عليه الجد بتناول بعض الشاي الأخضر قبل الخروج من المنزل، أشعره ذلك ببعض التحسن، فحمل حقيبة الظهر الخاصة به، وارتدى نظارته كبيرة العدسات، نظر إلى المرآة وحدث نفسه: "أنا اليوم لي كين الذي أتيت به، وسأخرج لأردي تلك الذكريات في المكان حيث حدثت وأعود وينتهي الأمر." ثم ابتسم لنفسه ابتسامة الثقة، والرضى عن النفس، ووضع سماعة في أذنه يستمع إلى بعض الأغنيات الحماسية، ومضى في دربه الطويل.

لم ينتبه كين لما يحدث في الطريق، من يسير بجواره، من يتحدث، ضجيج الازدحام، أصوات أبواق السيارات، كان منغمسًا في التفكير بأحلامه،

وسماع تلك الأنغام، ومراقبة القرص الأحمر يذوب شيئًا فشيئًا، ويتوارى عن الأنظار، تخللت ومضات الشفق الخافتة، تزاحم السحب البيضاء، تتخللها في تناغم بديع، فتبدو كلوحة أجمل من أن توصف، يسري ذلك الصفاء إلى نفس كين، فيشعر ببعض من السلام الداخلي ليقرر العودة إلى المنزل؛ حتى تنتهي فصول تلك الحكاية في هدوء.

كان الطريق مختلفًا في طريق العودة، شعر كين أن كل ما حوله يبتسم، كل شيء مفعم بالحياة، تملؤه طاقة إيجابية، كانت المرة الأولى التي يشعر خلالها أنه أحب ووهان، وأنه تعلق بشوارعها وطرقاتها، وأنها بدأت تحتل مكانًا -ولو صغيرًا- في قلبه، أخذ ينظر من حوله ثم تنهد قائلًا: "لم أظن أنني سأقول ذلك يومًا ما، ولكن ووهان أنتِ عزيزتي، وحقًا لا أدرك السبب."

كلمات كان يرددها الشاب العشريني أثناء مروره بجمع غفير قد اجتمعوا لمشاهدة عرض ما، جذبته الأعداد الكبيرة؛ فقرر أن يلقي نظرة على الأمر، حاول التسلل وسط ازدحام الجموع لينتهي إلى منصة خشبية كبيرة يغلب عليها ألوان الطفولة من الوردي إلى الأصفر والأخضر الفاتح، قد صممت على شكل فراشة كبيرة وهو ما أفزعه في أول الأمر، إلى أن اقترب كفاية من تلك المنصة ليجدها استعراضًا للأطفال من ذوي الإعاقة، يروي قصة ليرقة صغيرة كانت منزعجة ومضجرة من حياتها، إلى أن جاء أحد الأيام وأصبحت فراشة جميلة ساحرة، تستطيع أن تحلق لأبعد مكان، ثم ختمت تلك الفراشة فقرتها بقولها: "إن أحلامنا تستطيع أن تأخذنا أبعد مما نظنه حتى، فقط علينا أن نؤمن بتلك الأحلام." صفق الجميع بحرارة، اقترب

الشاب أكثر ليعرب عن إعجابه بالعرض، ويقدم بعض المساعدة المالية، وما إن التفت تلك الفراشة لتحي المشاهدين حتى وجدها "تلك الفتاة" من أعلى الجسر، تسمرت قدماه لبرهة من الوقت، وأخرج منديلًا ورقيًا وقام بمسح نظارته، ثم ارتداها ثانية قائلًا: "لا، ليس الأمر كما يبدو "لي كين"". ثم التفت مسرعًا يغادر ذلك المكان.

استطاعت الفتاة أن تلمح طيفه في تلك الجموع المتزاحمة، سرى شيء من الخوف والارتباك إلى نفسها كأنها رأت شبحًا ما، ولكنها أرسلت طرفها ثانية تتحقق من الأمر فلم تجده "ربما كان وهمًا" رددت في نفسها ثم عاودت مداعبة الصغار وتوزيع الألعاب والهدايا.

هرول الشاب يرتفع صدره صعودًا وهبوطًا، تتسارع نبضات قلبه، يحاول التقاط أنفاسه الهاربة، ينظر من حين لآخر خلفه، يؤمل أن ما يحدث الآن هو مجرد "هلاوس سمعية، أو بصرية" تغزو عالمه، وأن كل ما يحدث ما هو إلا أحد دروب الوهم الأسود، ربما خياله يسول له ما حدث، يحاول تكذيب ما رأى وتعليله مرارًا، لكن الشيء الوحيد الذي كان موقنًا به: هو تلك الابتسامة الملائكية الساحرة التي أشد إشراقًا من بريق القمر في ظلام ليل حالك، فإن كان كل شيء هو مجرد وهم فهذه الحقيقة الوحيدة، لقد استطاعت تلك الفتاة ببراءتها أن تحطم حصون قلبه العالية، وتزيل الغشاء الجليدي الذي تلفع به طوال سنوات عمره التي مضت. وصل كين إلى المنزل، ألقى التحية على جده دون انتباه، دلف إلى غرفته، تناول كأسًا من الماء الممزوج بالزعفران، جلس على كرسي البان الخشبي يتأرجح للخلف والأمام، أغمض عينه، وساد الصمت المكان لفترة من الوقت حتى

قطعه نداء الجد (كواشيي): لقد حان موعد العشاء، استغرق الشاب بعض الوقت ليستجمع فيه نفسه، ثم خرج كأنما أصابه إعصار جليدي فاستحال وجهه أبيض خافتًا ممزوجًا ببعض الزرقة، جلس كين على الكرسي المقابل للجد، تناول عصاه الخشبي ملوحًا به في الطعام، يصنع دوامات صغيرة في إناء النودلز الخاص به، أثار ما يفعله غضب العجوز فتنحنح عاليًا ثم قال: "أرى أن الطعام لم يعجبك، ولكن لا حاجة للعبث، ألا تدري أن نعم القدير حين تقابل بالعبث فإنها تزول؟"

_أخذ الشاب شهيقًا طويلًا يكاد على غصته يحرق رئتيه قائلًا: "ليس الأمر كما وسمت يا جدي، لقد كنت أفكر في أمر ما؛ لذا لم أنتبه لما فعلت، أرأيت تلك الدوامات التي في الطبق إنها أشبه ما يكون بالحال التي عليها عقلي الآن، وإن كان أكثر هياجًا من الإعصار الهائج."

وضع الجد عصاه جانبًا، وأسند ذقنه النحيل على يديه ثم قال: "وما هو السبب في ذلك إذًا؟"

اعتدل الشاب في جلسته، وأبدى نبرة جادة ناظرًا في عين جده العجوز: "لقد صادفت اليوم تلك الخرقاء "سوكيي"، أو هكذا ظننت كما أفعل منذ أن رأيتها للمرة الأولى، أشعر أنني أراها أينما يممت وجهي في كل زاوية، وبكل اتجاه."

ابتسم الجد بوجه حفيده ثم قال: "لا، لم يخيل إليك هذا، لقد كانت سوكيي بالفعل تقدم عرضًا خيريًا للأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة. لقد أهدتني دعوة للحضور ولكني قد نسيت الأمر."

ـ لا أدري لم يحدث معي كل هذا، لقد كانت إجازة عادية كسابقتها من كل عام إلى أن أتت تلك الفتاة لتغير عالمي، وتطاردني كلما هممت بنسيانها والعودة إلى قديم عهدي. إن ما رأيته اليوم ما أعجز عن نسيانه حقًا، ربما إن هذه الفتاة ملاك هارب إلى عالم البشر، مستحيل أن تكون هذه مجرد بشر، لو أنك رأيتها اليوم وكيف كانت تفيض لطفًا ورقة، لقد كانت أرق من طفل في مهده الصغير، كانت تؤدي الاستعراض كفراشة في أول ميلاد لها، تنتقل من زهرة لأخرى برقة ورشاقة، صوتها الهاديء هو أجمل إيقاع قد تسمعه أذناك ذات يوم، ثم أغمض عينه لوهلة ليردف من جديد: "جدي؛ هل تظنني أحب تلك الفتاة؟"

نظر الجد إلى نار المدفأة يستجلب شيئًا من تذكار الماضي، صفن للحظات ثم تنهد قائلًا: "الحب هو أكبر مما تصفه الآن يا ولدي، إن ما تتحدث به الآن هو مجرد إعجاب ساقه إليك القدر بطريقة ما، لكنك ما إن ترجع إلى حياتك وسابق عهدك ستنسى كل شيء، سيذهب كما يختفي الضباب في حرارة الشمس، أما الحب فهو ما لا تستطيع أن تنساه أبدًا، تراه يسلبك قلبك أولًا، ثم يستولي على عقلك وتفكيرك، ثم يغزو باقي جوارحك فلا ترى عينك سوى من تحب، ثم عالمك فتراه بكل مكان ولا ترى نفسك دونه أبدًا. الحب هو التربة الخصبة التي تنبت بها بذور الإعجاب الصادق، ليسقيه الصبر والصدق على طول الزمان، حتى يستوي شجرة عظيمة تثمر لتنير دروب المحبين، ويصيبهم من نفحها وعبير شذاها. الحب يا ولدي هو الغياب قبل الحضور، والعلة قبل المعافاة، والشوق قبل الوصال، والعدم قبل الوجود، نعم إنه عدم يحل وجودًا على

وجود صاحبه، هو المعركة الوحيدة التي تخرج منها واثقًا بالنصر؛ لأن الحب في ذاته هو الغنيمة الكبرى وإن لم يبادل صاحبه، فما الحال لو قوبل إحسانه بالإحسان، الحب هو اليقين، يقينك بنفسك، وشعورك، ووجودك، وصدقك، ومن أنا لأتحدث عن الحب، وهل قامت الدنيا على غير الحب، وهل من مسلّم من مسلمات الوجود ما هو أصدق من الحب؟

ثم وضع يده التي سطر عليها الزمان من أحداثه على قلبه قائلًا: "إن الحب يوم أن يقع هنا، ستشعر به بمفردك، ولن تحتاج إلى السؤال عنه."

بدا "لي كين" مقتنعًا بما يقوله الجد، شكره على نصحه الأمين، تناول القليل من شاي البابونج الدافيء ليشعره بالهدوء حتى يستطيع النوم، ثم استأذن للنوم. تمدد على سريره وأخذ ينظر إلى سقف الغرفة المزين بالنجوم الصغيرة مفكرًا في رحلته في اليوم التالي، حتى استسلمت جفونه في النهاية ليغط في نوم عميق..

في الصباح التالي، استيقظ كين على رائحة البخور الذي يطوف به جده في جنبات المنزل، جلس قليلًا يفرك جبهته ويدافع النعاس، ألقى نظرة سريعة على محتويات حقيبته، بدا كل شيء جاهزًا الآن، خرج من باب الغرفة وهو ينادي: "جدي، جدي ما هذه الرائحة، سأختنق لو أشعلت المزيد."

_ وضع الجد ذلك الإناء النحاسي في أحد زوايا المنزل ثم قال: "لقد كانت هذه إحدى عادات حبيبتي "يوكو" في الصباح، إن هذه العطور تملؤك بالراحة والإيجابية، لقد أعددت طعامًا، تعال وتناول منه القليل قبل أن يرحل القطار."

استجاب الشاب رغمًا عنه لطلب جده، ثم ارتدى معطفه الطويل؛ لأنها تثلج بالخارج، حمل أمتعته وما أعده الجد من هدايا للعائلة، ثم انحنى قليلًا وعانق الجد مودعًا إياه، وقف برهة على باب المنزل يلقي نظرة وداع على الأرجاء، ثم غادر المكان باتجاه محطة القطار. وصل (لي كين) إلى محطة القطار الكبيرة التي امتلأت بالمسافرين من كل مكان. أسر تعود إلى مواطنها، وطلاب يحملون مشاريعهم العلمية وامتلأت حقائبهم بالكتب التي لم يعد بوسعهم حملها، عجائز يسيرون بأقدام مرتعشة أنهكهم التعب وصقيع الصباح، جزء من العالم، هو عالم بأكمله على اختلاف رواده وطارقيه. جلس الشاب على أحد المقاعد يطالع بحثًا ما على هاتفه النقال بانتباه كان يقطعه من حين لآخر تلك الغيمات الصغيرة على عدسات نظارته، فيسارع بإزالتها وإعادة ارتدائها، حتى قطع ذلك صوت عجوز قد اشتعل منها الرأس شيبًا تستأذن للجلوس في مكانه؛ فلم تعد تحملها قدماها أبعد من ذلك، حمل كين حقيبته وأغراضه مُلبيًا لطلب العجوز وأثناء نهوضه عن المقعد تقع عينه مباشرة بعين الفتاة، انقطعت أنفاسه لوهلة، انتفض قلبه في صدره وتسارعت نبضاته، فغرت الفتاة فاها ورفعت حاجبيها ثم ابتعلت ريقها الذي كان كأجمة صبار، ساد الصمت، وخيّم السكون على المشهد للحظات قبل أن تقطعه "يوري" بقولها: "جدتي؛ أنتم هنا، لقد كنت أبحث عنكم منذ فترة؟"

استطاع صوت الفتاة أن يعيد لكين وعيه، التفت للجانب الأيمن وبدأ يغادر المكان تاركًا أغلى ما قد يملكه يومًا، القطعة الأهم في جسده "قلبه"، كان يلتفت خلفه من وقت لآخر ليتبين حقيقة ما رأى، والفتاة متجمدة على

حالها لا تحرك ساكنًا حتى لوحت "يوري" أمام عينها لتقول: "مرحبًا، هل أنت هنا؟" فتهمس إليها وهي على نفس حالة الشرود تلك: "انظري، إنه هو، الشبح الذي يطاردني."

_ يوري بنبرة حماسية: أين؟

_ هناك يتوارى بين الجموع.

_ أنا لا أرى شيئًا، ربما أصابك هذيان الصقيع هذا، هيا بنا حتى لا نتأخر، ساعديني بحمل الحقائب.

"ما الذي يحدث لي، كيف تجمعنا الأقدار بهذه الطريقة، أينما يممت أجده قبلتي ووجهتي، ترى على أي شاطيء سترسو سفينة الأقدار؟!

كلمات كانت ترددها الفتاة في خاطرها ريثما تصعد على متن القطار المغادر، تحاول اختلاس النظر عبر الجموع المتزاحمة حتى تتأكد أن ما يحدث الآن ليس أحد رواه، أو خواطرها العابرة. بل هو قدر لم تفكر به يومًا، ولقاء على غير موعد لم تعد له مسبقًا، تمحو الضباب المتسلل على نافذة القطار كطفل صغير قد شغف بانتظار رفاقه، أو منتظر لمسافر بعيد قد حانت عودته، تنظر في ترقب كانتظار الشمس لساعات الصباح حتى تشرق. غادر القطار "ووهان" وغادرت معه الفتاة، وتركت شيئًا من داخلها عالقًا بين أنفاس تلك المدينة، وخالجها شعور ربما لم تشعر به من قبل، فهل هكذا يكون الحب؟! أم أن هناك مسافات بعيدة يجب أن تطويها الفتاة، ودروب عدة يجب أن تعبرها قبل هذا الوصف؟!

جلس كين على أحد مقاعد الانتظار محاولًا التجلد، وعدم التفكير في الأمر، يهمس في داخله: "إنها بضع دقائق تفصلنا عن هذا المكان، وكل ما حدث يبقى من الماضي، ويخلد في رفات الذكريات. ولكن كلما هممت بنسيانها تخرج أمامي على غير موعد، تباغتني ببراءتها ورقتها على حين غفلة، كلما أعدت هيكلة ذاتي؛ بعثرتني من جديد، اليوم أغادر ووهان غير كل المرات السابقة، لقد أضعت قسمًا كبيرًا من داخلي، فهل ستعود لي نفسي في شنجهاي من جديد؟"

بدأ القطار يزفر بصوته المرتفع، الذي كان بمثابة موسيقى تصويرية بالنسبة لكين، لم يلاحظ شيئًا مما يحدث، فقد أحكمت تلك اللقاءات سيطرتها الكاملة على عقله، واستطاعت أن تحتل جزءًا ليس باليسير في قلب الفتى الذي طالما جحد الحب واعتبره أكبر أكذوبة في الحياة. غادر المدينة وكل ما يجول في خاطره متى يلتقي الفتاة ثانية، وهل تهب أنسام اللقاء من جديد؟ هل هذه كل الحكاية، أم أن هناك فصول لم تُكتب بعد؟

استطاعت كل تلك المشاعر المختلطة الممزوجة بالخوف والترقب أن تطوي مسافة الطريق. خوف من أن يكون هذا هو الحب الذي أفنى العاشقين، أسطورة الزمان الأبدي، الداء الذي لا يُرجى شفاؤه، ولم يُكشف دواؤه، وترقب للقاء ربما تجود به الأقدار على قلب سيبعث من جديد.

وبعد فترة من الوقت، أعلن القطار عن موعد الوصول لشنجهاي، فترجل لي كين عن متن القطار. سار كثمل متيم، يهوي وسط ازدحام المدينة

الصاخب، وصل إلى قلب شنجهاي النابض حيث تتقاطع جادة "بوند" مع شارع "نان يانج" ألقى الشاب نظرة عن بعد على ناطحات السحاب التي تعانق القبة الزرقاء، ولكنه سرعان ما أخفض ناظريه إثر السهام التي أرسلتها الشمس لتعكس من بريق وسحر تلك الألوان التي ترفل في أثوابها شنجهاي بأكملها، ثم بدا له أن يقوم بنزهة صغيرة يستجمع فيها نفسه قبل العودة للمنزل، سار على طول نهر (هوانجبو) حتى انتهت به قدماه إلى الحدائق المنبسطة على طول الطريق. جلس الشاب يستنشق من سحر الطبيعة، وعبيرها الفاتن، كان كل شيء يفيض بالجمال والسحر، الأشجار وظلها الوارف، والرداء المخملي الذي تزينت به الأرض، حفلات الزهور الراقصة على أنسام الصباح الهاديء، جداول المياه التي تعزف سيمفونية التناغم والصفاء، كل شيء ينبض بالجمال، يشع بالبهاء والسحر، نشرت الطبيعة من سحرها وجمالها ما جعله يقف عند شيء واحد، وهو أين قد استشعر هذا الجمال من قبل، ومتى اعتادت نفسه رؤية الجمال بهذه الصورة، ما هذه النفس الجميلة التي سكنت روحك يا كين، وأين كان كل هذا الجمال فيما مضى؟ لينتهي به الحال نحو حقيقة واحدة، الحقيقة التي ستغير كل شيء بداخله، إنها سوكيي، ولا بد أن هذا هو الحب، ثم أضرب أو طريقه.

مرت الدقائق والساعات دون أن يدري بها الفتى، كان في حالة من الشرود التام حال دون سماعه لصوت هاتفه الذي لم ينقطع، استطاع عقله أن يستل لحظة من تلك السكرات فينتبه ليجيب على أمه التي ذاب داخلها قلقًا عليه، فأجاب بالعودة على الفور.

أخذت الدهشة "أيكوو" عند سماعها بأن كين في الجوار يقصد الحدائق، وقد كانت هذه الحدائق هنالك قبل مولده حتى لكنه لم يقصدها يومًا على الرغم من علمه بوجدها. فمنذ متى وأصبح الشاب يهوى الطبيعة، والصفاء؟

وقد كانت عادته أن يسارع بالعودة لناطحة السحاب التي يقطنها ثم يصعد إلى مختبره ويعكف فيه لا يتصل بأحد على الإطلاق، إنه تغير جدير بالملاحظة التي لن تُخفى أبدًا على قلب والدة.

بدأت أنسام الغروب الباردة تهب في الأرجاء، أخذ الشاب حقيبته، ثم أحكم وشاحه حول عنقه وأدناه من وجهه قليلًا، ثم سار بخطى ثقيلة نحو المنزل. فتحت أيكوو الباب تستقبل ولدها بشوق وحنين، ضمته إلى صدرها بلهفة وإشفاق، ثم أخذت تتأمله وتتفقد ملامحه الشاردة في عالم آخر قائلة: "كيف حال الجد "كواشيي"، وكيف كانت رحلتك؟"

أجاب كين بفتور: "لقد كان كل شيء جيدًا."

ثم أردف بهمس خافت: "غير تلك اللقاءات المفاجئة." ناظرًا من زجاج الشرفة المجاورة، مسافرًا بخاطره نحو ووهان، وجسر "يانج سيقانج". اقتربت أيكوو لترى علام ينظر كين، ويبدو مهتمًا إلى هذا الحد؟ فلم تجد شيئًا يزيد عن العادي أو المألوف، ربتت على كتف ولدها قائلة: "لقد أعددت لك طعامك المفضل." التفت "لي كين" قائلًا: "اسمحي لي أريد أن ارتاح قليلًا." ثم غادر إلى حصنه الذي لا يجرؤ أحد على اختراقه.

جلس الشاب على كرسي صغير بجوار مكتبه، أسند جبهته إلى يده، أغمض عينيه وأخذ يفرك جبهته عدة مرات محاولًا أن يصفي ذهنه.. "كيف انتهى بي الحال هنا، أبحر إلى وجهة غير مألوفة، أيمم نحو شاطيء الحب بحطام قاربي المتهالك، أين أنا، وأين الحب مني! وأين أنا من الحب، بل كيف يصمد صاحب القلب الضعيف أمام هذه الأمواج العاتية، ما عدت أدري كيف ضاع الدرب مني! استيقظ أيها القلب المعاند، فإنك مبحر نحو حتفك لا محالة.. ثم أخرج الجدول الذي أعده للعام الحالي، ألقى نظرة سريعة على مشاريعه، وأبحاثه والتجارب التي بصدد إجرائها محاولًا أن يصرف انتباهه وتفكيره عن زيارته السالفة، وما حدث له فيها، غافلًا عن أن ما تركه هناك أعز من يُنسى بهذه الطريقة، كيف ينسى بعضًا من روحه التي تركها بووهان، كيف يعيش بلا قلبه الهائم، كيف يحيا بلا عقله الذي لا ينفك يفكر فيما حدث؟! زفر زفرة مشتعلة بنيران الشوق العاتي، ثم أخذ قلمًا من حاوية أقلامه على المكتب وأضاف هدفًا جديدًا، كتبه بمداد أحمر قرمزي ووضع حوله دائرة كبيرة وهو "كيف تفلت من زمام الحب؟" ثم تمدَّد على سريره يراقب في صمت الماسات المتناثرة على البساط الأزرق، يغوص إلى بحار أحلامه، وآماله البعيدة، ثم يباغته طيف الحسناء بابتسامة ملائكية ساحرة، تضيء غرفته، ويلمع سناها بما يضاهي القمر، ينتفض الشاب عن سريره ويسارع بإغلاق النافذة محاولًا الخلود للنوم، ظنًا منه أن ليل العاشقين كليل غيرهم، وأنه سرعان ما سيغرق في تلك الأحلام الوردية التي ستأخذه نحو "نوبِل" التي شغف بها من قبل، وأن في الصباح التالي سيكون أمرًا آخر، غير مدرك بأن مساء العاشقين صباح؛ فالذي يفكر نهارًا

لا ينقطع تفكيره بالليل، أمضى الشاب ليلته يتقلب في فراشه، أقضى عليه تفكيره مضجعه، كلما نازعته عينه النعاس، أيقظته نبضات قلبه، والذكريات التي تتوارد على عقله كأنه بث مباشر لحدث لا ينقطع أبدًا، ظل على هذا الحال في مد وجزر مع نفسه حتى أنفاس الصباح الأولى. كانت الشمس قد أرسلت بعض سهامها الذهبية لتتسلل برفق عبر زجاج النافذة، قام كين بإسدال الستائر حتى تحجب الضوء ويتسنى له النعاس، لكن من لم تطاوعه نفسه بالليل لن ترضخ له بالنهار.

نهض الشاب يجر جسده النحيل باتجاه صالة المنزل حيث جلست والدته تتناول الإفطار، انتبهت لحالة ولدها الذي كان يسير كالثمل يكاد يصطدم بما حوله من أساس المنزل، أسرعت قائلة: "كين، هل أنت بخير؟"

وضع كين يده على فمه في محاولة منه لإيقاف التثاؤب الذي أزعجه بشدة، وأشار بيده الأخرى نحو والدته وأومأ برأسه أنه بخير، ثم جلس إلى جوار النافذة يراقب ما يحدث خارج هذه الناطحات الكبيرة، وما تضج به من حركة وحياة. أسرعت "يوكو" وأعدت كوبًا من الشاي الساخن لولدها، وأضافت القليل من مسحوق الزنجبيل إليه حتى يشعر بالتحسن، اقتربت منه بلطف وجلست إلى جواره ثم سألته وهو في حالة الشرود تلك: "ترى هل هذا هو الحب؟"

فتمتم الشاب على غير دراية منه لما يحدث: "أظن الأمر كذلك."

انتفضت "يوكو" عن مقعدها وهللت كالصغار: "كنت أعلم، إن نظرة الأم لا يمكن أن تُخطئ أبدًا." ثم راحت تضحك بصوت مرتفع أثار انتباه ولدها

الذي عاد لتوه إلى عالم الأحياء، نظر إليها بدهشة شديدة مقطبًا ما بين حاجبيه وقد زم شفته قائلًا: "ما الأمر يا أمي، هل ربحت في لعبة اليا نصيب؟"

نظرت الأم كمن أوقع بغريمه وقالت: "إنه الحب يا ولدي، هل رأيت؟"

أخذ الشاب الارتباك، وانعقد لسانه يفرج عن بعض الكلمات المبعثرة، وما، حب، أين، ثم صمت لبرهة قبل أن سمح للسانه أن يردف: "سوكيي"

ابتسمت الوالدة، وأزالت بيدها الرقيقة بعض الخصلات المبعثرة على جبين صغيرها قائلة: "هي سوكيي إذًا، لا بد أن تكون محبوبة حتى تتمكن من أن توقع بقلبك الجاحد هذا." ثم تسارعت وتيرة كلماتها بشغف: "أخبرني أين رأيتها، ومتى، هل هي من شنجهاي، هل كنت معها بالأمس، هل تعمل؟" كأن سيلًا قد أصاب الفتى فتحول ذهنه إلى طوفان عارم، فانحنى قليلًا نحو والدته، ونظر بعينها ثم وضع يده برفق على كتفها ليجلسها. ثم أخذ شهيقًا طويلًا ليقول: "لا أدري كيف التقيتها، أو كيف سألقاها؟ كل ما أعرف أنني كلما حاولت أن أدير دفتي بعيدًا عنها أجدني أبحر باتجاهها، كأنها شاطئي ووجهتي ومقصدي ومرساتي، تسحبني بسحرها، ورقتها إلى عذوبة روحها الجميلة، كلما التقيتها ازددت عطشًا كمن يرتوي أجاجًا، كلّما حاولت التخلص من لقائها أجدها تصطدم بوجهي هنا وهناك، إنها كطيف يطاردني، يحوم من حولي أينما طُفت، إنها بكل مكان، ووهان وهنا، بغرفتي، خارجًا خلف النافذة، حتى أنني رأيتها بالأمس وسط النجوم، لقد كانت أشد منهن جمالًا وسحرًا وتوهجًا وبريقًا،

ماذا أقول لك يا أمي وتلك الابتسامة تضيء عوالم بأكملها، ماذا يصنع القلب الضعيف أمام كل هذا؟

تمعنت يوكو تلك القسمات. تباريح الحب التي أصابت صغيرها. هل حان الوقت ليمضي في درب الحياة، ويختبر حقيقتها، هل سيبزغ نور جديد في قلبه يهتف بحب فتاة غير والدته؟ ثم أردفت بهدوء: "لي كين، أنا أؤمن بك." وأشارت إلى قلبها.. "هنا في داخل أعماقي، أتمنى أن تُحَصِّل السعادة يا ولدي." ثم انطوت نحو غرفتها لتباشر أعمالها اليومية، تاركة الشاب المتيم يحيا تباريح حبه بمفرده بجوار النافذة، لكنه بعد بعض الوقت أدرك أن عليه تفحص بعض النتائج المتأخرة في معمله، فاصطحب كوبه المفضل من القهوة الخضراء، وسار باتجاه المعمل.

لكنه في هذه المرة نسي أن يحضر أهم شيء قد يأخذه إلى هناك، لقد نسي عقله وإدراكه وشغفه، نظر بفتور إلى نبتتي الفراولة اللتين عدلهما وراثيًا، وتلاعب ببعض أجزاء من حمضهما النووي ثم استنشق كتلة كبيرة من الهواء ليزفر بعدها قائلًا: "جيد، تبدو الأمور على أفضل مما يرام، ستحيى هذه النبتة الصغيرة في أي فصل وتزرع في أي نوع من أنواع التربة، وربما سيتضاعف الإنتاج. يبقى أن أقوم بحقن بعض المضادات؛ حتى أضمن عدم تعرضها للتلف.." ثم جلس يرتشف على مهل قهوته وهو يفكر.. "هل نحن من نصنع أقدارنا، أم أنها قوانين تطبق علينا فحسب؟ هل خطَّ بقدره تلك المقابلة على حين غرة حتى تقلب عالمه وكيانه، هل سيخرج ليلفظها خارج قلبه حتى يصطدم بها في إحدى الجادات من جديد؟ إن هذا هو أعظم ما قد يُبتلى به المرء، يأسر نفسه بذاته، ثم يضعها في سجن لدى

غيره، ويحكم توصيد قفل بابها، ثم يولي عنها تعتصر من شغاف الحب وتباريحه ولوعته، ونيران الشوق وتكاليفه وجواه، ثم يردد في نفسه بصمت "إنه الحب". قضية هو فيها الجاني، المظلوم، والخصم، والحكم، جانٍ على نفسه مرارة العشق، مظلوم بدائه، خصم لنفسه التي تنازعه النجاة، حكم عليها بسجن التباريح المؤبد، ثم يردف قائلًا: "أرى أن شفائي الوحيد في الأيام، الأيام التي تقسي وتنسي وتفرق وتبعد، أو ازداد فوق العشق عشقًا، وفوق الشوق لوعة، وفوق الهوى صبابة، عندها تكون أولى تجاربي الحياتية تكون قد أنجزت، وأولى أكاذيبي تكون قد صدقت، ولربما ما يقطع في هذه الأقدار هو أفضل مما أعددناه وأحكمنا حساباته، وراجعناها مرارًا، ربما كانت سوكي تلك مصيري نحو النجاة لا الهلاك." ثم زاد: "كل ما على الآن هو الانتظار، فقط الانتظار سيحملني إلى ما أريد."

رددها الشاب ملتفتًا نحو الخارج وهو لا يدري أن هنالك بتلك الناطحة المجاورة التي شقت عنان السماء، من يجلس بنفس حاله، بل أشد اضطرابًا، فهو يعلم عنها أكثر مما تصفه به "العالم الأخرق".

جلست الحوراء ذات العشرين ربيعًا ترقب أمواج "اليانجستي" المتلألئة تحت الأشعة الربيعية الخافتة تتسلل كالحسناء من وراء حجاب، جلست في حالة تامة من السكون كأنها تجمدت على حالها، فلا تتحرك أو تلتفت، فقط تسمح لعيونها أن تطرف للحظات تسترجع من خلالها مشاهد لا تفارقها، ولا تنفك تفكر فيها، ترقب لقاءً بلا موعد، وموعد بلا استعداد، جلست يعتصر قلبها ويتأجج كبركان ثائر، من هذا، وكيف يظهر أمامي من

حيث لا أدري، أهو شبح يتبعني، أم وهم في خيالي؟ ربما ليس هذا ولا ذاك، ربما هو روح سكنت فؤادي على حين غفلة مني، ونفس سلبتني نفسي قبل أن أعي حتى، وذكريات تطاردني -على الرغم من قلتها- على طول الزمان، لعله كان خطأي منذ البداية، أنا من تكبدت خسائري وحدي، ولن يشفي تلك الجروح غيرك يا ألله، ثم بكت بحرقة ملهبة ورددت: "إني كنت من الظالمين." ثم بدا لها أن تصلي وتقرأ قليلًا من القرآن، فهذا وبلا أدنى شك سيزيح عن كاهلها عاصفة الهموم التي تعانيها، فتقدمت نحو زاوية مخصصة للصلاة في المنزل، وسجدت سجدة طويلة، ثم أجهدت في بكاء طويل كأنما تبكي للمرة الأولى في حياتها، أفرغت ما في صدرها من الآلام، غسلت قلبها ونفسها من تلك الندوب الشائكة، وضمدت جراح روحها المتهالكة، تضرعت بصلاح أمرها وانشراح صدرها، أحسنت التوسل والتوكل، فسلمت من تلك الركعات لا تحملها قدماها، بل تحلق كعصفور صغير في رحاب الكون الواس. شعرت بأن أثقالًا وضعت عنها، تنفست الصعداء بعد أن كادت تتصعد في السماء، واستنشقت برد السكينة بعد أن كان يحرقها كل شهيق تأخذه في تلك المدينة الكبيرة، عادت إلى ذات النافذة بنفس وروح غير التي غادرت بها، جلست تنعم بالصفاء، والسلام الروحي حتى قاطعها صوت (ران) ابنة عمها ورفيقة طفولتها التي أكثرت سؤالها حديثًا عن الإسلام والمسلمين، وأبدت اهتمامًا كبيرًا بقراءة نسخة مترجمة عن القرآن الكريم، وسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- أقبلت الفتاة تعبث بخصلات شعرها المتناثرة على جبينها الناصع كحبات اللؤلؤ قائلة بحماس زائد: "هل لا زلتِ تجلسين هنا! هيا بنا، لا بد أن

المؤتمر يوشك على البدء الآن." ابتسمت الفتاة وقالت: "أمهليني فقط للحظات حتى أحضر بعض الحلوى للصغار بالطريق." هزت (ران) رأسها قائلة: "هل لا زلتِ على نفس الحال من إحسانك اللا متناهي هذا." ونظرت إلى ساعتها وأردفت: "أمامك خمس دقائق لا غير، حتى نستقل الحافة، وإلا ستذهبين سيرًا.." ضحكت الفتاتان وخرجتا سريعًا، استقلا الحافلة في الموعد، جلست الفتاة وران تلتقط كل منهما أنفاسها، ثم فجأة يبدو (لران) وجود شخص يبدو مألوفًا، حتى وإن انقضت كل تلك المدة؛ إلا أن هذه القسمات تقبع بداخل ذاكرتها، تغمض عينيها وتحاول أن تتذكر من هو، فلا تسعفها ذاكرتها بشيء، تحاول أن تعتصر ذهنها فلا تتذكر أبدًا، جلست طوال الطريق تحاول أن تتذكر إلى أن اقترب مكان الوصول فصاحت بصوت عالٍ دون أن تدري: "نعم إنه (ميكاتو).." التفت الشاب النحيل، وحاول أن يتبين مصدر الصوت، ثم أومأ برأسه للترحيب وردد بداخله: "بعد عشر سنوات نلتقي مصادفة، إنها حقًا أصدق من ألف ميعاد قمت بترتيبه حتى ألقاكِ (ران)." واكتفي بالصمت، توردت وجنتا ران خجلًا وأسرعت بإخراج منديل مررته على وجهها حتى تخفي التوتر، والارتباك الذي علا محياها في هذه اللحظة. تلك اللحظة التي أحيت بداخلها ذكريات طوتها عشر سنوات مضت، كانت كفيلة بأن تُنسي طفلة صغيرة حبها، أو للإنصاف إعجابها الأول الذي طوته وفاة والدتها وانتقالها إلى مقاطعة "آنهوي" برفقة والدها قبل وفاته، وقرارها بالعودة إلى شنجهاي من جديد. لم تلاحظ الفتاة شيئًا مما حدث مع (ران) كانت ترقب بإمعانٍ بالغ تلك المدينة الكبيرة، وضجيجها المفعم بالحياة. سحبتها

(ران) من يديها حتى تنتبه لموعد النزول، ترجلت الفتاتان عن الحافلة وبانتظار كل منهما مفاجأة لم تكن في المخطط أبدًا، أقبل (ميكاتو) الذي اختلفت هيئته كثيرًا عن الماضي، وجهه الأبيض الشاحب، شعره شديد السواد، نحوله الذي اشتهر به، بيد أنه أطول من ذي قبل، يبدو أنه لم يعد ذلك الصغير البائس، بل أصبح "ميكاتو" المخترع. كانت تلك اللحظات فارقة في عمر هذه العلاقة التي انصرم عقدها، وانتهت قبل بدايتها، تتبعثر الكلمات على شفاه المحبين السابقين، يتمتم كل منهما بأشياء غير مفهومة، حتى استقر الحال بإلقاء (ميكاتو) للتحية، التي ارتجف قلب الفتاة عند سماعها، نغمات هذا الصوت التي لم تألفها منذ سنوات كانت كفيلة بإحياء الحب الماضي، نظرت نحوه بخجل وسألته عن أحواله، فأجابها بأنه ذاهب لتقديم أحدث مشاريعه في مؤتمر التكنولوجيا الذي ينعقد بعد حوالي نصف ساعة، وألح عليها في الحضور، حاولت أن تبدي الانشغال في بداية الأمر؛ حتى ترى مدى اهتمامه بالأمر، وإن كان سيصر على ذلك، لكن همسات رفيقتها حالت دون ذلك فأجابت بالموافقة ناظرة في عينه التي كانت تنبض بالسعادة، ثم غادرت ترتجف يداها ولا تستطيع أن تتمالك نفسها من شدة الفرح الذي لم تستطع الحصول على مبرر له، غير أنها تشعر بأن الكون بدأ يضيء من جديد.

شعرت الفتاة بارتعاش، وبرودة تسري بيد (ران). نظرت إليها ورفعت حاجبيها تتساءل: "من هذا الشاب، ولماذا تغيرت حالك إلى هذه الدرجة إثر رؤيته؟" ثم ختمت حديثها بقولها: "هل أنتِ بخير ران؟"

أخذت ران نفسًا عميقًا أخرجته ببطء قائلة: "أنا بخير، إنها مشاعر دامت لأكثر من عشر سنوات، ثم انقطعت مدة مماثلة، والآن تجذبني إليها على غير موعد، كأن أحدهم أصابكِ بسهم في منتصف قلبكِ، عندما كنتِ في عالم غير العالم، وحياة غير التي نعرفها؛ فأعاد إليكِ روحكِ، ونفسكِ، وقلبكِ، وبريق عالمكِ بدلًا من أن يقتلكِ.." ثم صمتت لبرهة من الزمن حتى أردفت: "أتعرفين أمرًا، لا بد وأن هذا هو الحب، الحب هو الدواء الذي لا تنتهي مدة صلاحيته بمرور الزمان، ولا تنقصه بعد المسافات، لا يخضع لقوانين أو قواعد، ربما يرتكز على الصدق والإخلاص، إلا أنه غير مقيد، غير مشروط، غير محدود، ليس مادة، أو آلة، ولا أعرف عنه إلا أنه "التقاء أرواح تسكن وتطمئن إليها نفوسنا، وتعيننا على إكمال الدروب الصعبة، وتجاوز مهلكات الحياة."

التفت الفتاة بذهول لهذه الكلمات التي بدت تخرج من أعماق ران، ولم تستطع أن تتحدث بشيء. فاكتفت بصمت طويل سرمد على الأجواء لم يقطعه سوى صوت سعالها العالي، وتسارع نبضات قلبها حينما لمحت من بعيد قسمات بدت أنها تعرفها جيدًا، صاحت ران برفيقتها إن كانت بخير، هل تذهب بها إلى مشفىً مجاور، فاكتفت بإشارة أنها بخير، وتابعت بقولها: "لا بد أن نذهب من هنا في الحال.."

فتوجهتا نحو المؤتمر بسرعة. لفت الحوار السابق انتباه الشاب الذي هرول في مغادرة المكان كأنما يطارده وحش قاتل، لم يتوقف عن الالتفات حتى وصل إلى مسافة بعيدة حالت دون رؤيته للفراشة التي غيرت عالمه بالكامل، دخل إلى قاعة المؤتمر وجلس في الصفوف الأمامية؛ فالمخترع

الأول هو شقيقه الذي طالما دعمه، ووقف إلى جواره، واليوم يستطيع أن يمتع ناظريه أخيرًا بثمرة جهده الطويل، فاليوم ستشرق شمس ميكاتو، تقدم ميكاتو على المنصة، نظر له كين مبتسمًا في فخر واعتزاز، استطاع أن يلمح الرضا في وجه أخيه الأمر الذي دفعه لشرح اختراعه بثقة وثبات، فأثار إعجاب اللجنة المشرفة وحصل على براءة لاختراعه، استطاعت فرحته أن تحلق به في سماء المجد، لكن ما أسعده بشدة هو نظرات السعادة والفرح التي علت وجه ران في مؤخرة الصفوف، أخذ يردد في نفسه: "اليوم لا أعرف من هو أوفر مني حظًا في العالم؟" كان يطالع ساعته كل دقيقة تقريبًا، حتى ينتهي المؤتمر ويستطيع أن يلتقي بحبه الضائع، وسنوات عمره الماضية، همس بأذن شقيقه: "أريد أن أعرفك بأحدهم.." ثم قاده نحو حتفه، نظرت الفتاة المضطربة في عينه بهلع وتمتمت: "أنت من جديد؟ لا يعقل ما يحدث الآن." اكتفى بابتسامة ساخرة وعقب: "مرحبًا، لي كين." فغرت سومي فاها ونظرت باتجاه رفيقتها: "أتعرفان بعضكما قبلًا؟! هذا لا يصدق، فهذه أول زيارة لكِ لشنجهاي." همست الفتاة بصوت مرتعش: "وستكون الأخيرة، هيا بنا لنرحل الآن." نظرت إليها ران نظرة يكللها الحزن، ثم أطرفت مسرعة نحو "ميكاتو" الأمر الذي جعلها تتحمل هذه اللحظات على ثقلها وضيقها، أجرت سومي وميكاتو حديثًا مطولًا، استطاع كين في خلاله أن يسترق بضع نظرات نحو الفتاة التي كانت تشتعل اضطرابًا في داخلها، كأنها على وشك الانفجار وتبعثر أجزاءها كشذرات في كل اتجاه، كانت تشبك يديها ببعضهما البعض حتى تقلل من ارتجافها، يتصاعد صدرها بشدة لسرعة أنفاسها التي كانت تسترقها من الهواء

الخانق، ينبض قلبها كنقبلة بدأت العد العكسي حتى تنفجر، كلما رفعت ناظريها وجدتها بعيني الفتى فتسارع بخفضهما من جديد. مضت تلك الدقائق كالدهر بالنسبة إليها، كانت كتفاصيل كابوس مزعج، بل أبشع من كابوس بالنسبة إليها، ظلت تسترجي مرور الوقت حتى عادت إلى ذات الناطحة، انطوت على نفسها قابعةً على سرير غرفتها، كشبح أزرق، بأطراف باردة مرتعشة، لا تقوى على الكلام أو الحديث، كل ما يسيطر عليها في هذه الحال هو كيف يمكن أن تتقاطع تلك الدروب من جديد، هل تركته بووهان، حتى تستقر بحصنه في شنجهاي! إن هذا لاختبار يصعب تجاوزه، أو حتى التفكير في ذلك.

أطلت ران تختلس النظر من بعيد على باب الغرفة، تنظر بحظر وحرص شديدين، تفكر في ذاتها كيف ذبلت تلك الزهرة اليانعة واضطربت إلى هذا الحد، وما الذي يدور بينها وبين لي كين، هل يمكن أن يكون سالب راحتها وهدوءها، وكيف تلقي بها الأمواج في شاطيء لقياه من جديد؟ ثم انحسبت ببطء، وآثرت أن تتركها بمفردها؛ حتى يستقر لها الحال.

وبينما كانت عينا ميكاتو تثير تساؤلات عديدة، وتصوب سهامًا متحيرة نحو شقيقه (كين)، يغمغم مع ذاته بكلمات مبعثرة، كأنما يعد خطابًا ما، ثم يبتلع ريقه من حين لآخر إثر تردده وارتباكه. يباغته أخوه بالسؤال عن ران قائلًا: "إذا من أين بدأت قصة الفتاة؟"

أضاف ميكاتو قطعة من السكر إلى كوب الشاي خاصته، وأسرح ناظريه في أمواج (اليانجستي) المخضبة بحمرة شفق الغروب ثم قال: "قصة، أي

قصة تلك؟ إنها أكبر بكثير من أن تروى في قصة أو رواية، إن شئت لك أن تقول إنها أسطورة، أو أهزوجة، أو نغم منفلت من عليا الجنان، ماذا أقول؟ ولكن إنها كيان كامل في كل شيء، ولو بحثت في بنات جنسها منذ الأبد فلن يجود الزمن بنصفها أو معشارها أبدًا، كم أتمنى أن أمضي ما تبقى من عمري بصحبتها على جزيرة منعزلة، فلا أرى سوى وجهها، ولا آنس لغير جوارها، تلك التي سحرتني وأبهرتني، وأهدت إليَّ نفسي، وأعادت إليَّ ذاتي وحقيقتي، إنها روح ملك على هيئة بشرية، ورقة فراشة تخطو على اثنين، إنها قصيدة شجية بصوت متهدج مرنّم. كيف أحدثك عنها اليوم ولم تخلق الكلمات التي تصفها بعد! وكل ما قلت، وما سأقول، وما لم لم أقل لن يوفي ابتسامة تكشف عن درها المكنون الذي يضيء عوالم بأكملها. إنها الحقيقة الوحيدة التي لا أقدر على تصديقها حتى الآن، ما زلت لا أفهم كيف أن هناك من هو كذلك؟ إني أحدثك الآن وقلبي يصدر إنذارًا لبقية جسدي بالرحيل؛ لأنه لا يحيا إلى غير وجودها..." ثم التفت ناظرًا بعينه المتوهجة بريقًا إلى أخيه ثم أتبع: "أنا عاجز تمامًا أمام سؤالك يا سيدي."

سمح كين لفمه أن يفرج عن نصف ابتسامة باردة، وأضاف بنبرة ساخرة جافة: "ميكاتو الصغير عاشق إذًا؟"

تنهد "ميكاتو" قائلًا: لست محبًا أو عاشقًا، فأنا دون مستوى الحب بعد، فهو أعظم من أن تصفه كلمات، أو تضمه عبارات، إنه خارج إطار التكنولوجيا المعقدة، والأحماض النووية لهندستك الوراثية، خارج الزمان والمكان والألوان، خارج كل شيء، أعده بداخلي ذاتًا مجردة عن الكائنات

جمعاء، ثم قبل أن يستفيض بحديثه ويشعل نيران الحب بقلب أخيه يقاطعه قائلًا: أين التقيت بران؟ فأنا لم أرها مطلقًا في الجوار.

أخذ ميكاتو المتيم شهيقًا طويلًا قائلًا:

-لقد كانت سومي تقصد نفس المدرسة التي التحقت بها، كانت ضئيلة جدًا في الحجم آنذاك، تجلس دائمًا بمفردها؛ لتنمر الصف عليها ووصفها بالعصفور البائس. طالما رأيتها تبكي في الفناء، وذات يوم رق قلبي لها؛ فاقتربت منها، بدت خائفة في أول الأمر من كوني أضيف تنمرًا جديدًا، لكنني أهديتها ورقة صغيرة نقشت بداخلها "أنتِ جميلة على الرغم مما يقولون."

رفعت وجهها ونظرت نحوي مفرجة عن ابتسامة لم أرَ بجمالها حتى الآن مع تلك الأسنان الصغيرة المنفرجة، ومسحت دموع عينها ثم أضافت:

-شكرًا لك.

ومنذ ذلك الحين وأصبحنا رفقاء. و مع مرور الوقت، بدأنا بتناول الطعام سويًا، استحضرنا بعض الدروس، كان لها تقنية فريدة في ترتيب الأشياء وتنميقها، وكان لها سحرًا وإبداعًا يزيد كل ما حولها أو يقترب منها جمالًا، ومع مرور الوقت سلبتني قلبي وعقلي وتفكيري وكل شيء، كنت أرقب الصباح لمرات عديدة حتى يتثنى لي رؤيتها بتلك الخصلات التي كانت تسدلها على كتفها، ومراقبة أصابعها الدقيقة تكبر شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت فتاة تفيض بالحسن والجمال، رأيت فيها جمالًا لم تعرفه حتى عن نفسها، وربما لن تعرفه يومًا. صمت لبرهة من الوقت ثم أردف قائلًا:

-إن من أحبك بصدق يرى فيكِ جمالًا لم تعهده من نفسك، إن عين المحب لا تقع إلا على كل جميل، وتترجم كل جميل، وتجمل كل ما ليس جميل.

مرت الأيام وأصبحت ران روحًا تسكن وتحيا بداخلي بشكل كامل، لا تفارق نفسي ولو للحظات، حتى أوشكنا على نهاية المدرسة الثانوية، فباغتنا خبر وفاة والدتها التي ظلت تصارع السرطان لسنوات عديدة. ذاب قلب الفتاة حزنًا، لم تستطع أن تُلملِمَ شتاتها أبدًا، كما أن حالة والدها المتدهورة صحيًا دفعتهما إلى الرحيل المفاجيء. قصدتُ منزلهما في البناية المجاورة، فوجد ورقة ملتصقة بالباب دُوِّن عليها "ربما كان الفراق أيسر بكثير من الفقد." ووضعت إمضاءً باسم العصفور البائس ران.

لم تكن سومي العصفور البائس يومًا.

لكنها خلّفتني بعدها أشد بؤسًا من هذا العصفور التي وسمت، لقد تركتني جسدًا بلا روح، قلبًا بلا دماء، جسدًا بلا جوارح، لقد بحثت عنها في كل زاوية في شنجهاي، ثم تبعتها إلى (آرهوي)، خلتها ستعود إلى مسقط رأس والدتها؛ لتمضي حياتها هناك. لقد استغرقني البحث ستة أشهر كاملة، كنت أبحث ليل نهار، أطوف بالبلاد كطفل صغير أفلت يد والدته وضاع إلى الأبد. وبالنهاية استطعت أن أصل لعائلة والدتها في آرهوي، وعندما بدأ الأمل يلوح أمام ناظري، اكتشفت أنهم لم يذهبوا هنالك أبدًا، لم أكن أعلم أي مكان آخر من الممكن أن تقصده، عدت إلى شنجهاي ثانية، ثم في أحد الأيام تذكرت قائمة بأسماء الأماكن التي ترغب ران في زيارتها، قطعت

عامًا كاملًا، أطوي جنبات الأرض الأربعة، لم أترك مكانًا لم أذهب إليه، لكنني لم أجدها يومًا، ولم أتمكن أيضًا من الاستدلال عليها. لم يخطر ببالي حقًا أن يكون وقع خيار والدها على المكان الذي التقى فيه بزوجته للمرة الأولى. للمرة الأولى تخونني حسابات الحب الصادقة، مضى عامان وكل يوم كان جزء يموت بداخلي، كل جميل تعلمته منها كان يهجرني، جاهدت في نسيانها، لكنني فشلت، وكلما فعلت يعود حبها أضعافًا إلى حطام قلبي. كانت معي في كل مكان، كأن طيفها يحوم من حولي، كنت أراها بكل الوجوه، وفي كل الزوايا، حتى أصبحت لا أعرف أو أهتدي لأحد غيرها. بدأ عقلي يتبع قلبي في الانهيار، قصدتُ طبيبًا نفسيًا، أخذتُ حبات المهدىء ونمتُ لأيام متتابعة، أعجبتني الفكرة وبدا لي أن أرحل عن دنيا الأحياء. ثم في صباح باهت كعادة أيامي تلك تذكرت جملتها وابتسامتها الملائكية قائلة: "إن أحلامنا تحلق بنا عاليًا، ثم تصل بنا إلى ما نريد." هنا قررت أن أستعيد ولو بعضًا من ميكاتو السابق حتى أصل إلى ران من جديد، لم أنسَها قط. كانت بقلبي وبعالمي الخاص، شاركتني كل شيء، كنت أنظر عبر النافذة كل صباح علَّني ألتقيها، ثم ها هي اليوم تفي بوعدها لي، والتقيها يوم انتصاري الأعظم؛ ليس لتحصيل الجائزة، فهي جائزتي التي لم أبذل ما تستحقه من جهد حتى الآن..

رفع كين عينيه الشاردتين ناظرا لأخيه، ساد الصمت المكان لبضعة لحظات، ثم حرَّك كوبه عدة مرات صانعًا دوامة صغيرة ببقايا قهوته الخضراء، ثم غادر المكان بهدوء تام، تبعه ميكاتو مسرعًا، أخذ ينادي أخي عدة مرات دون استجابة، أو انتباه من كين على الإطلاق، حتى لحق به

ميكاتو الذي نظر إليه فوجده في عالم ثانٍ بالكلية، يبدو أن ما قصه عليه أيقظ جذوة الحب في قلبه، وألهب صبابة العشق التي يجحدها منذ فترة، لم ينبس كين ببنت شفة حتى عاد الشقيقان للمنزل الذي أعدت به الأم أيكو حفلة عائلية صغيرة؛ للاحتفال بولديها اللذين طالما اعتادت منهما التفوق والنجاح، استقبلتهما بفرحة كإشراقة الصباح، لم يقابلها كين سوى بشرود تام مع محاولة العبث بقسمات وجهه من حين لآخر يرسم عليه ابتسامة زائفة محاولا إخفاء الحال التي كان عليها من الداخل. لم تبدِ أيكو أية ردة فعل تجاه ما يفعل صغيرها، مما أثار حفيظة والده الذي لم يرَه منذ حوالي شهرين، فأشارت نحوه بيدها وأومأت بخفة وابتسامة رقيقة، فتجاهل ما يحدث أمامه على الفور، جلس الفتى يتصنع لبعض الوقت ثم استأذن محتجًا بتنفيذ بعض مشاريعه في المعمل. هناك حيث جلس شاردًا حتى ساعات الصباح الأولى لا يفعل أي شيء مطلقًا سوى التفكير في تلك الفتاة، وما إذا كانت قَدَره بالفعل؟ جلس يفكر في اضطرابها وخجلها وتوترها، ونظراتها الساحرة، وحيائها الآسر. كيف تغض بصرها كلما وقعت عينها بعينه، وهل يمكن أن يكون كل هذا هو محض مصادفة، هل من الممكن أن يكون هذا مجرد وهم زائف أم أنها حقًا شاءت الأقدار!

كانت تلك المرة الأولى التي صارح فيها كين نفسه بحقيقة حبه –حتى وإن كانت على استحياء– لم يشأ في هذه المرة أن ينسى الفتاة، أو يفكر في شيء آخر يصرفه عن التفكير فيها. سمح لقلبه أن يتنفس نسمات العشق للمرة الأولى في حياته، وأطلق عنان عقله ليفكر في تلك الفراشة للمرة الأولى، كان للمرة الأولى يفكر في اللقاء القادم وليس الفرار منه، للمرة الأولى

تشتعل عينيه بوميض الحب وضيائه، المرة الأولى التي تهتز فيها أسوار حصونه المانعة، شروده الذي لم يخفَ على أيكو أبدًا، ولا ميكاتو بطبيعة الحال.

ظل كين على هذه الحال من الهيام ثلاثة أيام دون أن يدري، يتعاقب ليل فنهار، تطل شمس وترحل أخرى وهو مترنح لا يعي ما حوله، كل ما يفعله هو التأمل، وتناول شاي الزنجبيل، والنظر عبر زجاج النافذة، حتى قرر الخروج من المنزل في نهاية الأمر.

في تلك الأثناء كانت ران لا تنفك تراقب الفتاة من بعيد، تراقب تلك العبرات التي تنساب على وجنتيها كحبات اللؤلؤ وهي تصلي وتستعين على أمرها. انتظرت عند باب الغرفة حتى بدا أن الفتاة قد انتهت، فطرقت الباب وقالت بحماسة شديدة:

-اليوم سأحقق لك أمنيتين على الأقل، أمامك عشر دقائق قبل أن تبدأ الرحلة.

ثم أمسكت يد الفتاة وقادتها نحو الخزانة قائلة:

-ليس هناك وقت لهذا الهذيان، هيا بنا.

ثم ضحكت أثناء عبورها الباب للخارج. وبعد القليل من الوقت استطاعت الفتاتان أن تصلا بعد عناء شديد من الازدحام إلى حافة شارع "ليجازو" في حي"بودونغ" على نهر"يانجبو"، حيث أشغفت الفتاة بـ " لؤلؤة الشرق" ووقفت تنظر في ذهول تام إلى الأضواء الساحرة التي تعانق عنان السماء في هندسة معمارية باهرة، أخذت لب الفتاة منذ الوهلة الأولى،

تسمرت قدمي الفتاة بالأرض، لا تحرك ساكنًا، ولا يرتد لها طرفًا، بدت كأنها منومة مغناطيسيًا، كان جمالًا تخر أمام عتبته الأعين التي جبلت على حب كل ما هو جميل، مرت نحو عشر دقائق حتى تمكنت الفتاة من استعادة وعيها ثانية وبدأت جولة الفتاتين في البرج، في البداية قصدتا مسرح (ديزني) للرسوم المتحركة، كان العرض الذي يذاع حينها (الجميلة والوحش) وكيف تمكنت تلك الفتاة (بيل) أن تحول الوحش إلى حبيب مخلص لا تستطيع العيش بدونه، وإن كان بنفس الهيئة الدميمة، "إن الحب لا يعرف الأشكال بقدر ما يعرف القلوب والأرواح." تلك هي الكلمات التي كانت تتردد في نفس الفتاة عند مغادرتها صالة العرض. ثم قصدتا المتحف الخاص بتاريخ المدينة وتطورها، وكيف انتهى بها الحال إلى تلك اللؤلؤة المضيئة على صفحات الزرقة المتلألئة، وكيف هي ثمرة الجهد المتواصل، كيف تطورت من مجرد ميناء إلى مدينة الناطحات العالية؟ ثم كانت المفاجأة التي تحدثت عنها ران من قبل وهي رحلة قصيرة تنعدم بها الجاذبية عبر غرفة المنطاد، كان كل ما يدور بذهن الفتاة في تلك الأثناء أن هذا حلمًا أو خيالًا، كانت تشعر بسعادة غامرة، ترفرف كفراشة تختال بين زهور الربيع، وعلى حين غفلة منها تجد أمامها لي كين تجمدت أطرافها للحظات ثم ابتلعت ريقها الذي استحال أجمة من الصبار، وأغلقت عينيها في ذعر لتفتحهما على ابتسامة منه كأمواج هادئة في ليلة مقمرة، كان اضطرابها وخجلها هو ما يدفع الشاب للابتسام من جديد، حتى بدا الأمر مألوفًا لديها بعض الشيء، حاولت جاهدة استجماع نفسها، ودون أن تشعر انتهت الرحلة التي بدأت لتوها ولم تستمتع بها إلا القليل،

ملأت رئتيها بكمية كبيرة من الهواء ثم حبستها وأخرجتها بهدوء وبطء قبل أن يتجه نحوها ليلقي التحية مضيفًا: " لي كين" .

التفتت نحوه الفتاة ولم تحرك شفتيها حتى، اكتفت بنظرة يعلوها التساؤل بعد أن رفعت حاجبيها قليلًا ثم ولت مدبرة، ولم تعقِّب نحو المطعم الفاخر بالبرج، فلا بُد أن سومي تنتظرها منذ فترة؛ لا سيما وقد جاهدت كثيرًا حتى تتمكن من حجز تلك الطاولة المطلة على وجهة لن تحصل عليها إطلاقًا في أي مكان آخر، يكفي أن تتناول وجبة العشاء على ارتفاع ٢٧٦ مترًا وسط سطوع لأضواء قوس قزح المنعكسة على صفحات المياه في ظلمة الليل.
اقتربت الفتاة من طاولة سومي التي لم تجلس طوال هذا المدة بمفردها، بل أعادت بعض رمق الحياة إلى حبها القديم بصحبة ميكاتو الذي ودعها ببريق الحب في عينه لدى وصول الفتاة، جلست الفتاة تطالع المشهد الآسر، لم تعبأ كثيرًا بالطعام الفاخر وحساء الخضراوات المنمق في الأطباق، اكتفت بتناول رشفات قليلة من شاي التنين الأسود، ثم ودعت المكان بنظرة طويلة حالمة بالعودة إليه من جديد، وعادتا مباشرة إلى المنزل.

كان الشرود هو ما يحكم الأحداث حتي عادت الفتاتان إلى المنزل، لكل منهما سببها الخاص: سومي تتذكر أيام حبها الخوالي مع ميكاتو، تتذكر احتواءه، وإشفاقه، ودعمه المستمر، تتذكر عطفه، وعطاءه اللا متناهي، تتذكر آلامها، ومآسيها، وصفعات قدرها المتتالية، وكيف أنه كان مؤزرها الوحيد وبلسم جراحها في كل أزماتها. تهمس بداخلها "إن من دعمنا وقت العسر هو أحق بوصلنا في اليسر." ثم أضافت بصوت مسموع دون أن تدري: "ولكن هل ما زال ميكاتو على العهد؟"

لقد مرت عشر سنوات، وهي مدة أظنها كافية لإنهاء كل شيء، لا بد وأن النسيان قد طرأ على كل الذكريات فمزقها أشلاءً، ونثرها في مهب الريح. ثم من يعلق أمره بفتاة تركت له رسالة على باب منزلها ورحلت دون أن يدري إلى أي اتجاه، ثم أردفت بنبرة حزينة باكية: "كما أنني لست على قدر من الجمال يجعلني أعلق بالذاكرة، ولا بد أنه قد رأي من الحسناوات ما يمحو تلك القسمات من عالمه بالكلية." ولكنها قبل أن تضيف شيئًا آخر انتبهت إلى صوتها العالي، ووجه الفتاة التي تنظر إليها كأنما على رأسها الطير، فشعرت بخجل شديد حاولت التخلص منه عبر سؤالها: "منذ متى وأنتِ هنا؟" مع نصف ابتسامة مشوبة بالارتباك، نظرت الفتاة إليها بابتسامة رقيقة لتقول: "لقد كنت معك طوال الوقت، منذ أن غادر ذلك الشاب وغادر معه عقلكِ تمامًا، لقد كنتِ تحدثين نفسكِ طوال الوقت وكأنكِ في عالم آخر." أخذت سومي شهيقًا طويلًا استجمعت خلاله نفسها ثم قالت: "في الواقع؛ لست ألقي اللوم عليكِ لهذا السؤال، فأنتِ حتمًا لا تدركين ما كنت أتحدث عنه، وربما كان في الإسلام ما يجعل من الحب شيئًا معيبًا أو ممنوعًا." ضحكت الفتاة إثر سماع هذه الكلمات، وأردفت: "وهل هناك من وعى الحب كما اكتنفه واستشعره الإسلام! أنتِ تتحدثين عن دين الحب في المقام الأول. الإسلام لا يمنع الحب ولا يحول دونه، إنما يمنع دروبه المحرمة، وتبعاته المتجاوزة، هذا هو الحب الذي منعه الإسلام." نظرت إليها ران بدهشة؛ فهذا يخالف ظنها إلى حد كبير، فلطالما اعتقدت أن المسلمين يقضون نهارهم في الصوم، وليلهم في الصلاة والعبادة مما يجعل الحب آخر ما يطمحون إليه في الحياة. صفنت لبرهة حتى أضافت

الفتاة: "سأخبرك الآن بما سيجعلك تندهشين وبحق، هل علمت يومًا بأن أحدًا قد أحب زوجته إلى درجة تجعله يكرم صديقاتها بعد وفاتها، ويظل يتذكرها ويهتف باسم حبها على الرغم من طول المدة، حتى بعد أن تزوج بعد وفاتها ظل حبها ملازمًا له لا يخشى من البوح به! ومن فرط حزنه عليها أطلق على عام وفاتها "عام الحزن" هذه هي أسطورة الحب الأبدي، الحب الصادق، الحب الذي قام على مشاعر، ومواقف ارتبطت بصدق الحب والإحساس به." كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تقطع حالة الدهشة التي تغزو كافة ملامح ران لتقول: "هل حقًا ما تقولين عند المسلمين؟!"

ابتسمت الفتاة وقالت في اعتزاز: "ليس عند المسلمين، بل عند قائدهم وقدوتهم "محمد" صلى الله عليه وسلم.."

ـ ران بعد أن قطبت حاجيبها فاغرة فاها: "محمد، أليس هذا نبيكم!"

أومأت برأسها وعلى شفتيها ابتسامة المنتصر: "نعم، هل أدهشك الأمر، هل تصدقين ما يعرضه التلفاز من صور مروعة عن المسلمين، هل تظنين أن الإسلام هو دين الدماء والأشلاء، والحرائق والدمار؟؟"

أغضت سومي طرفًا خجلًا ولم تُبدِ جوابًا، فأضافت الفتاة: "دعيني أخبرك أمرًا، الإسلام هو دين الحب، دين التسامح، دين العطاء، والقيم، والمباديء. هل علمت أحدًا يومًا قال: لا تؤذوني في زوجتي، لا تؤلموها فأتألم، لا تحزنوها فأحزن، لا تكسروا خاطرها فينكسر قلبي، كلمات على قلَّتِها تحمل كل معاني الود والحب والإخلاص، لقد قالها نبينا في وجه الجميع: "لا تؤذوني في عائشة". الحب هو أن يجعل قافلة بأكملها تنتظر

لأن زوجته قد فقدت قلادة، قلادة ليست بالشيء الهام. ولكنه لم ينظر للقلادة، ولكن نظر لأثر فقدها في نفس من يحب. الحب هو أن يحملها لترى ما يحدث خلف الجدار فقط لأنها تريد ذلك، لم يقل لها دعك من هذا، أو سأقص عليك ما يحدث، احتواء لم أسمع بمثله، ولن يحدث ثانية، فهذا هو الإسلام، وهذا هو الحب ممن جاء به، وأجزم في أعماقي أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- قد حمل للعالم دستور الحب الأعظم الذي لم ولن يُضاهى يومًا..

شعرت يومي بشيء من الارتياح نحو الدين الاسلامي، تسري إلى نفسها بعض الطمأنينة والهدوء، نظرت بابتسامة إلى رفيقتها قائلة: "لا أعرف الصلة بين ما حدثتني به، وما كنت أشعر به من اضطراب قبل قليل، لكنه أراحني على كل حال." ثم نهضت عن الأريكة تراقب الطريق عبر النافذة لتضيف: "يبدو الحب جميلًا في ظلال الإسلام." ربتت الفتاة على كتفها وهي تطالع ذات المنظر: "ليس الحب فحسب، بل كل شيء في الإسلام جميل، رائع إلى درجة يصعب على استيعابها في كثير من الأحيان." التفت ران نحو الفتاة لتزيد: "نعم، وربما يسعك يومًا ما فهم ما أقوله الآن." ثم انصرفت؛ لتدع الفتاة تفكر في حب أعظم مما وقعت فيه، حب سينير عليها عالمها إذا قصدته يومًا ما..

لم تكن ران وحدها التي تحاول إحياء الماضي، بل إن ميكاتو راح يحيي رفات قلبه، ويعيد إليه الحياة من جديد، الحياة التي ظن أنه فقدها وللأبد برحيل ران في المرة الماضية. راح يفكر كيف لا يفقدها للمرة الثانية ويردد: "لقد منحني القدر فرصة لإعادة إحيائي، ولا أتجرأ على إضاعتها ثانية. لا

بد أن أعترف لران بكل شيء." نظر إليه كين وابتسم بخبث أثناء مروره لمعمله ليقوم ببعض التجارب التي كان بصدد إجرائها، ولكنه ما إن وصل إلى مرأبه، وخلت له نفسه، حتى باغتته ذاكرته بومضة سريعة خاطفة تحمل توقيع الفتاة، تلك اللحظة على سرعتها وعجلتها كانت كفيلة بأن تقلب عالمه رأسًا على عقب. شعر كين باضطراب وأخذه ارتباك صبي صغير قبل الامتحان، حاول أن يعتصر ذاكرته حتى يفكر في شيء آخر، لا يريد أن يستسلم للحب، لا يريد أن يتحول لكواشيي أو ميكاتو آخر. يخشى أن ينهار عالمه، ويفقد طموحه وأحلامه، يحذر أن يضيع ويعلق في دروب الحب، ثم ينتقل إلى الصدمة الكبرى وهي أنه على وشك الوقوع في حب مسلمة.

في الجادة المقابلة ظلت ران تطالع ما يجري عبر النافذة، ازدحام الطريق، اصطفاف الأشجار وتتابع المارة. لكنها لا ترعى انتباها لأي شيء يحدث، حتى لو حدث زلزال وانشقت الأرض لتبتلع تلك الناطحة التي تقطنها لم تكن لتفعل!

كانت غارقة في التفكير تمامًا، لكنها لا تفكر في ميكاتو هذه المرة، أو كيف ستحي ذكرى حبها البائد، بل كيف يمكن لعقيدة تحمل كل هذه القيم، والمثل ولا تسود العالم، إن مثل هذا الحب الذي قضته الفتاة منذ قليل لكفيل على إصلاح ما أتلفته الدنيا بذاتها الضعيفة، وهذه القيم تقيم عوالم بأكملها، ليس ذلك العالم الصغير فحسب. لم تشعر الفتاة ذات الخمسة وعشرين ربيعًا بنفسها حتى دخلت إلى غرفة ابنة عمها لتجلب جهاز الكمبيوتر المحمول حتى تجري وسمته بـ(النبي محمد، وزوجاته)، إلا أن

انتحاب الفتاة بذات الغرفة استطاع أن يقطع تلك الحالة التي سكنتها لتترك محرك البحث يشير إلى رابط لن يتم فتحه. اقتربت ران من الفتاة مسرعة لتقول: "هل أنتِ على ما يرام، هل طرأت مشكلة للجدة، هل هناك خطب ما؟" تتابعت الأسئلة على لسان الفتاة التي بدأ الخوف يأكلها من الداخل، تلتقط أنفاسا على استحياء لا تكاد تصل إلى رئتيها، ولكن بلا جواب أو حتى إيماءة، أو إشارة، تمعنت ران ما يحدث لبرهة لتدرك أن الفتاة تتحدث إلى أحدهم، إنها ترتدي ثوبها المخصص للعبادة، تضم كفيها وترفعهما قليلًا، وتردد كلمات بالعربية لا تفهم معناها، لكن وقعها يثير راحة وهدوء لم تشعر به ران من قبل. إنه أجمل بكثير من الأنغام التي اعتادت سماعها، تُرى أي سحر هذا! لا بد أن أستعير قرصًا مدمجًا يحمل تلك الأنغام. جلست ران على كرسي مجاور، بعد أن هدأت نفسها، واستعادت انتظام دقاتها، لا يرتد إليها طرفها من شدة الانتباه، كأن على رأسها الطير، تراقب الفتاة وتحبس أنفاسها؛ فلا تفرج عن زفراتها إلا بهدوء حتى لا تقطع عليها ما يحدث. استمر الحال لبضع دقائق، حتى أطلقت الفتاة كلمة (آمين) ثم برحت تغادر مكانها شيئًا فشيئًا، فأثارت انتباه ران التي كانت تحملق إليها بشدة، سارت باتجاهها ولوحت بيدها يمينًا ويسارًا، إلا أنها لم تجب، جلست الفتاة بجوارها واضعة يدها على كتف ران تهزها برفق وتتبع ذلك بقولها: "ران، ماذا هناك؟"

استدارت ران نحو الفتاة وأجابت بلا انتباه: "لا شيء، أنتِ ماذا كنت ترددين منذ قليل؟ من هو صاحب تلك الترانيم الهادئة؟ لقد أسرني صوتك الدافئ وتلك العذوبة التي تحملها الكلمات.. لا أستطيع التعبير عنها."

هزت رأسها بذهول، وحاولت استجماع كلمات خانها قاموسها اللغوي في تجميعها لتنتهي بقولها: "أي سحر هذا؟"

ابتسمت الفتاة ابتسامة ملائكية هادئة، وعبأت رئتيها بعز لتقول: "لقد كنت في حديث مع ربي وخالقي سبحانه، كنت أسأله بقضاء بعض أمنياتي، أما عن الأنغام فهي (القرآن الكريم)." إجابة مقتضبة أرادت من خلالها أن تستل المزيد من أسئلة سومي التي أبدت الدهشة إثر سماعها فقالت تلك الأخيرة: "ربكِ!!" بدهشة مشوبة بالفضول..

_ نعم، وما في ذلك؟ إن العبد لا يحتاج إلى صلة، أو واسطة ليصل إلى ربه، يكفيه أن يرفع كفيه إلى السماء وينادي يا رب..

_سومي بمزيد من الاندهاش: "هكذا فقط؟ ليس هناك قس أو راهب أو كاهن أو ..." قاطعت الفتاة قولها واكتفت بـ: "ليس هناك من هو أقرب إليك من خالقكِ، فعلام الوسطاء إذًا؟" زادت دهشة ران، وأومأت برسها وليكن، وماذا عن تلك الأنغام؟

_ إنها الهدوء، والراحة، والسكينة المطلقة، الحياة، والصفاء، والطمأنينة، لم يطرقه مكلوم إلا وكفاه همه، إنه مؤنسي ورفيقي في أحلك طرقاتي ظلمة، إنه فيض من الدروس والعبر التي لا تنتهي، ليس هناك أية مشكلة لم يعرض لها، رسائل وعظات متتابعة. أنباء من قد سبق. ثم تنهدت لتردف: "ماذا أقول؟ إنه ليس ككلام البشر.."

شعرت ران براحة تسري إلى داخلها. هدوء يداعب قلبها المكلوم، يخفف آلامها الدامية، أسرحت ناظريها في مصلى الفتاة وانفرجت شفتاها عن ابتسامة رقيقة توحي بالاقتناع لما قد سمعت.

حمدت الفتاة في نفسها أن الفضول لم يدفعها للسؤال عما دعت به، وإلا ستخر القواعد التي شيدتها لتخفي حالها، عمدت إلى حقيبتها مسرعة، وأخرجت كتابًا خط بالعربية تقرأه كالمتعتع بصوت مسموع، تقف بعد كل كلمة لتفهم معناها وتربطها بما قبلها، وربما أعادت الجملة كاملة لتفهم المسطور، لكنها كانت مستمتعة إلى حد بعيد، الحد الذي تجمد عنده الزمن بسؤال ران الذي نزل كصاعقة: "وبماذا دعوتِ إذًا، ولمَ هذا النحيب؟ لقد أفزعتني.."

رفعت الفتاة ناظريها عن الكتاب، فوضعته مفتوحًا على المنضدة بجوارها، شبكت أصابعها لتؤازر بعضها علها تخفي ارتباكها، واضطرابها لتقول: "لا شيء، فقط كنت أدعو الله أن يصرف عني السوء، ويهديني لما هو خير لي في ديني و دنياي.."

_إنه طلب جميل، وقد لفت انتباهي أنكِ قرنتي الدين بالدنيا وهذا ما كنت أظنه مستحيل، كيف يقترن الدين الذي هو منبع الطهر، والنقاء بالمادية البحتة ومطامع الدنيا؟!

_إن الإسلام يا ران لا ينفصل عن الدنيا، بل إنه جاء ليقومها ويشيدها بما فيه صلاح البشر.

_إنه لعقيدة رائعة، توازي بين الروح والجسد، العمل والعبادة، الدين والدنيا، هذا دين مكتمل. ابتسمت الفتاة قائلة: "هل تعلمين أن آخر عبارة ذكرتها توافق معنى آخر آية نزلت من القرآن؟" ابتسمت سومي ابتسامة عريضة وحركت رأسها تطلب سماعها. كان لصوت الفتاة الرخيم وما يحمله من دفء النغمات الأثر الكبير الذي دفع ران إلى طلب نسخة مترجمة عن القرآن الكريم، وأخرى صوتية لتسمعها في أوقات الحزن والضيق. الأمر الذي ملأ قلب الفتاة بالسعادة، وغمرها بالرضا، ومحى من عقلها قليلًا التفكير في الشبح الذي يطاردها (كين).

مضت بضعة أسابيع، كل يوم تزداد أسئلة ران عن الإسلام، النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– وكيف دخل إلى بلاد الصين؟ وفي كل مرة كانت الفتاة تغمرها بأجوبة تزيد من دهشتها وإعجابها بهذا الدين على حد سواء، حتى جاء اليوم المقرر للرحيل. كانت الفتاة تترقب اعتناق ران للإسلام يومًا بعد يوم، لقد أبدت اقتناعًا كبيرًا بالأمر، حتى أنها قامت بتجربة الحجاب، لكنها في النهاية لم تفعل. أخذ الضيق يتسلل إلى قلب الفتاة، لم تستطع مقاومة الحزن، شعرت أنها غير موفقة، فما كان منها إلا أن انهالت تبكي وتتضرع ساجدة، كانت تتمنى أن يهدي الله بها أحدًا، لكن القدر كان يخفي بين طياته الكثير لها لأن "من يتق ويصبر، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين."

جلست تلملم شتاتها الذي قطعه نداء ران باسمها وقولها: "لدي مفاجأة ستدهشك، كانت هذه الكلمات كفيلة بأني ينتفض لها قلب الفتاة.. فرحت، شعرت أنها استيقظت للتو من كابوس مزعج. نظرت باتجاه الباب

يخيل إليها أن تطل ران بالحجاب تحمل بيدها مصحفًا، إلا أن أمنياتها باءت باليأس إنها ران بخصلاتها الليلة المنسدلة التي تضطر إلى ازاحتها عن وجهها حتى تتمكن من الرؤيا، وتنورتها التي تجاوز ركبتيها على استحياء، وتلك الابتسامة التي تقول: "إنه وقت المرح." استدعت صدمة الفتاة انتباه ران لتقول: "كل هذا الحزن لأنه يومكِ الأخير هنا؟"

قابلت الفتاة ذلك السؤال بابتسامة ذابلة واكتفت بإشارة من رأسها، لتردف ران : "بما أنكِ حزينة هكذا، دعيني أخبرك بالوجهة التالية، نحن ذاهبون إلى حديقة (يويوان) إنها قريبة من (بوند) سنستقل حافلة نحو الجنوب، ولكن هيا حتى لا نتأخر." قالتها ران مع دفعة كبيرة من الحماس، الأمر الذي دفع الفتاة إلى قبول النزهة، وسرعة الاستجابة إلى طلبها.

في الطريق، استولت مشاعر الخوف على الفتاة، الخوف الذي يصيبها في كل مرة تخرج فيها من المنزل، لا بُد وأن شبحها سيظهر في أية لحظة، وبأي مكان. كان التفاتها من حين لآخر مثيرًا للشك في نفس ران، لكنها ألجأت ذلك ربما لرغبة الفتاة في الاطلاع على المكان، وكيف لا وقد سحرت شنجهاي كل من يطرق بابها..

بعد مدة يسيرة وصلت الفتاتان إلى الحديقة، كان المشهد أسطوريًا للغاية، كل شيء يبدو غاية في الروعة والسحر، ويفيض بالبهاء الآسر، الذي يشعر من يراه كأنه في متحف يعود إلى ربعمائة عام مضى، حين قرر أحد أفراد أسرة (مينج) تشيدها، نظرت الفتاة في انبهار إلى ذلك المعمار الفريد، الأبنية العتيقة مقوسة القباب كعادة الأبنية في الصين، الجداول التي كانت تسيل

من تحتها هناك وهناك، روعة الأزهار التي لم ترَ نظيرها ذات يوم، الجسور الممتدة لتوصل المساحة الكبيرة ببعضها البعض، أشجار الصنوبر العتيدة، صخور الشيم التي زينت المكان واختص بها، كان المشهد أعجز من أن يوصف أو يُحكى، لقد كان ضربًا للسحر، الجمال، الروعة، ومن لم يفتن بجمال الطبيعة فلبيحث عن ذائقته التي ربما فقدها، أو أعدمها. كانت الكلمات لا تكفي لتشف بها الفتاة عن حالها فاكتفت بقولها: "حقًا هذه حديقة السعادة."

استغرقت الفتاتان النهار بأكمله؛ لتتمكنا من الاستمتاع برؤية خمسة أفدنة بأكملها، ما بين الهندسة المعمارية الآسرة على الطراز الصيني القديم، الزخارف التي تعود لقرن مضى، المتاحف الفنية، الأزهار والنباتات النادرة التي نُثرت في لوحة ساحرة هنا وهناك، كان الجو مفعم بالحياة والبهجة، كل شيء ينبض بالجمال الساحر الآسر، مرت الساعات على عجل – كعادة الأوقات الجميلة– اختالت الشمس في ثوبها الوردي، ترفل نحو الغروب، فأضفت مسحة من جمال القرمزي الفاتن على سبائك الفضة الذائبة في الجدوال. تعبق المكان برائحة الغروب، وانتشرت أنفاس الأصيل الباهرة، فوقفت الفتاة تحاول التقاط بعض الصور التذكارية من أعلى الجسر. كانت الابتسامة الانفعال الوحيد الذي أبدته طوال هذه المدة، حتى قررت الفتاتان العودة إلى المنزل فعلى أحدهما أن تستقل القطار في الصباح الباكر.

في طريق العودة لم تُجرَ أية محاورات بين الفتاتين، كل منهما تسبح في فلكها الخاص: ران تفكر في حديث الفتاة عن الإسلام، أخلاق المسلمين

وآدابهم، القرآن الذي أسر سمعها منذ الوهلة الأولى، الحب في الإسلام وروعته، ثم ينتهي بها ذلك إلى مُسلمة أخيرة فتضع بين قوسي قلبها (ميكاتو). كيف لها أن تبقي على تلك العلاقة التي لن تستقيم في مطلقها؟ فميكاتو غير مسلم، وهو مخترع مفتون بالمادة البحتة والذكاء الاصطناعي، ورغم مواقفه النبيلة التي لا تنقطع إلا أن آخر اهتمامه أن يفكر في اعتناق الإسلام، الأمر الذي كان يمزقها من الداخل، حتى أوشكت على الانقسام إلى آلاف الذرات المتطايرة في هواء شنجهاي. أما عن فتاتنا بطلة هذه الملحمة: فكانت ذات مشاعر مختلطة، كلها تموج بداخلها في آن واحد، بعض السعادة المشوبة بالصفاء إثر تلك النزهة، القلق والاضطراب لأنها خارج المنزل، الخوف ممن ستصادف تلك المرة، بعض الحزن فران لم تعتنق الإسلام أو حتى تبدي ما يوحي بذلك. وبينما تطالع عقارب الساعة أثناء عبورها الطريق في موازاة مطعم (فا بين) الشهير، إذا بها تجد من يدفعها بعيدًا، لترتطم بالرصيف المجاور، تحاول أن تفتح عينيها لترى صورة ضبابية مشوشة، ثم تغيب عن الوعي.

بدأ مرور الوقت ما يجاوز الساعة، أصدرت الفتاة هينمات توحي ببداية استعادتها لوعيها، هرولت ران باتجاهها، أمسكت بيديها المتجمدتين وراحت تمسح على وجهها بحنان وهي تردد: "اهدأي، إنكِ بخير. أنا هنا بجانبكِ." حاولت الفتاة التواصل معها إلا أن غصة ألمَّت بها للحظات، لتفتح عينها بالنهاية على ذات الصورة المشوشة التي كانت قد أغلقتها عليها؛ فتنفض بفزع تحاول مغادرة المكان، لكن ضمّات ران الحانية استطاعت أن تهدأ من روع الفتاة أخيرًا وتعيد إليها شيئًا من الاتزان.

استدعت الجلبة التي أحدثتها الفتاة سابقًا دخول طبيبة حديثة التخرج، نظرت إليها بابتسامة هادئة وأردفت بقولها: "لا تقلقي، إنكِ بخير تمامًا، وما أنتِ فيه الآن ليس إلا تأثير الصدمة والمفاجأة، لكنه سرعان ما سيزول، لولا وجود ذلك الشاب؛ لأمسيتي في عداد الموتى الآن." قابلت الفتاة ذلك بنظرات مرتابة ورددت بداخلها "شاب؟ أنا لا أعرف هوية منقذي؛ فلم أره وقت الحادث، لكن تلك النبضات المتسارعة بداخلي التي تكاد تشق صدري كأخدود عملاق، لا تنبيء إلا بشيء واحد، ولا تنم إلا عن أنه هو "الشبح الذي يطاردني"، لا بد أن أرحل عن تلك البلاد وللأبد حتى أتحرر من تلك اللعنة التي أصابتني." ثم وثبت بعقلها نحو كومة من الذكريات قد اعتادت تناسيها يوميًا وشردت في عالم آخر؛ فلم تشعر بالطبيبة التي فحصت ضغط دمها الذي أبدى مؤشرًا منضبطًا رغم الصدمة، وألقت نظرة سريعة على وجهها فلم ترَ أية كدمات أو ما شابه، كل شيء بدا على ما يرام غير عقل تلك الفتاة الذي بدا مسافرًا عبر الزمن. أخبرت الطبيبة ران بأنها تحتاج إلى بضع ساعات أخرى؛ لتطمأن على استجابة المؤشرات الحيوية للفتاة بصورة كلية. شكرتها ران، ثم عاودت النظر إلى ابنة عمها التي بدت كأن أحدهم ألقى عليها تعويذة ما، كان القلق يذيبها من الداخل؛ لأن أوجاع الجسد تُشفى، أما القلوب فحتى تضميدها ليس بالأمر الهين..

في الطابق الخامس وفي الغرفة الخاصة بالعناية الفائقة يخرج أحدهم ممد على سريره المتحرك، لتنتفض أمة وتقول بصوت حزين متقطع الأوتار: "من فضلك أيها الطبيب، أخبرني، هل سيكون بخير، متى سيستعيد وعيه؟" لم يكن خوف "أيكوو" على سلامة ولدها وحياته هو سبب بكائها

الوحيد، بل وصول ذلك المتكبر المتعجرف إلى المشفى هو ما يكاد يقتلها رعبًا، تتخيل أن يلتهم إعصار غضبه الهائج شنجهاي بأكملها، لا سيما إذا ما علم أن ابنه قد ضحى بحياته -التي كان يعتقد أنها أحد ممتلكاته الخاصة- في سبيل إنقاذ مسلمة. افترشت الأرض من فرط حزنها، تجهش في البكاء، تتوسل بداخلها أن يتأخر وصول زوجها حتى يتحسن ولدها قليلًا، كانت تنتفض فزعًا، يرتعش جسدها بأكمله، كأنها تسير تحت الثلوج المتساقطة بالخارج، بل إن تلك الصورة لا تنصفها، جلس ميكاتو إلى جانب والدته أرضًا، ومنحها عناقًا حانيًا مخبرًا إياها أن كل شيء سيكون بخير، وأن الأوضاع ستسير إلى الأفضل. حتى قطع ذلك صوت استشاري المخ والأعصاب وأكبر الجراحين المختصين بذلك النوع من الجراحة: "هل منكم من يدعى (سوكيي)؟" انتفض الشاب وأمه في الحال توجها نحو الطبيب فأجابت "أيكو" باكية متلهفة: "أيها الطبيب، هل ولدي بخير؟"

_ نعم، لقد أجرينا له الجراحة وتبدو النتائج مبشرة، سيستعيد وعيه قريبًا، ومن المتوقع أن يفقد شيئًا من ذكرياته الماضية، ولكن تلك الفتاة سوكي تبدو خيط النجاة بالنسبة إليه، فأين هي إذا سمحت؟

حاولت أيكوو يائسة أن تشرح الأوضاع للطبيب، لكنه ما زال مصرًا على موقفه، لا سيما وقد أقلبت الممرضة تزف نبأ إفاقة الشاب وهو يتمتم: "انتبهي سوكي، سوكي هل أنتِ بخير؟" لتستسلم بالنهاية، وتقرر الذهاب للبحث عن الفتاة بطوابق تلك المشفى الكبير. غادر الطبيب من فوره، ألقى نظرة فاحصة على الشاب، يشير الجهاز إلى انتظام معدل ضربات القلب

لديه، تلك الكسور بيده وقدمه تبدو بسيطة وسرعان ما ستشفى، الكدمات كذلك ليست بالأمر الجلل، جل ما يقلقه ويخيفه هو أمر ذاكرته، فعلى الرغم من أن نقطة الدم التي استأصلها كانت ضئيلة الحجم إلا أنه يظهر شبه فقدان مؤقت للذاكرة، ثم ينظر إلى ميكاتو الذي ترتعد فرائسه ويقول: "كما أخبرت سابقًا، لا بد من إحضار تلك الفتاة سوكي.." يقابله ميكاتو بنظرة قلقة ويشير برأسه بوهن، وهناك موسيقى تصويرية بصوت الشاب: "انتبهي سوكي، سوكي هل أنتِ بخير؟"

أضاف الطبيب بنبرة حازمة: "هذا هو مفتاح استعادته لذاكرته، وحياته، وتجاربه، وإلا سيطول الأمر، ولا أعلم إلى أي مدى قد تصل تلك المدة؟" ثم غادر الغرفة. جلس ميكاتو على كرسي بجوار أخيه طريح الفراش، أخذ يتصفح ملامحه وقسماته، لا يصدق أن غرور وكبرياء أخيه قد ينتهي بهما الأمر على تلك الحال، هل من الممكن أن يعشق ذلك القلب الجسور، إن هذا الحب لم يترك أحد. حتى جحود وإنكار لي كين العالم المخترع أفضى به إلى بئر العشق الدفين. إنها الحياة، لا بل هو اليقين الوحيد بتلك الحياة التي قد تخوننا أحيانًا مقدراتها المادية الخادعة. ثم ينتبه على صوت ضوضاء مفزعة لا تخفى عليه إطلاقًا، لا بد وأنها صادرة عن الجيش المخصص لحماية والده رجل الأعمال الكبير والمشهور (لي تشانج) الذي ضجت بنجاحاته الصين بأكملها وإن شئت فقل: شرق آسيا.. كل هذا ليس لأنه علم بحال ولده، ولكن لأن أفراد الأمن بالمشفى قد حالوا دون دخول وحدته العسكرية الخاصة التي تصاحبه في كل مكان. رغم محاولتهم إقناعه أن ذلك من باب الحفاظ على سلامته الخاصة، وبالطبع

راحة واستقرار المرضى داخل تلك المشفى. وما إن أشار طيف دخوله إلى الغرفة حتى ضاقت أنفاس المسكين ميكاتو، أخذ يعبأ رئتيه بالهواء مسرعًا، كأن الأُكسجين قد نفذ من تلك الغرفة، يبدو أن سيل اللوم سيلقى عليه بمفرده، لن تكون هناك (أيكوو) لتأخذ حصتها ثم تذود عن ولدها، فقد عمدت إلى الطابق السفلي لتسأل الموظفة الخاصة بالاستقبال عن وصول فتاة مسلمة في حادث في الساعة السادسة مساءً، لم يكن الأمر عصيًا على موظفة الاستقبال، فلا تستقبل المشفى المسلمين كل يوم، فسرعان ما أرشدتها إلى الطابق المنشود، ومنه إلى الغرفة التي تمكث بها الفتاة، طرقت الباب بلطف قائلة: "أيمكنني الدخول؟" حسبت ران تلك بعض الممرضات أو الطبيبة، لكنها تفاجأت برؤية وجه أعاد بها الزمان إلى عشر سنوات مضت، تجمدت أجزاؤها للحظات، ثم ابتعلت ريقها بصعوبة بالغة وأردفت بصون متحشرج: "تفضلي." وأشارت بيدها المرتعشة للداخل، جلست أيكو تراقب الفتاة النائمة إثر تناول جرعة مهدئة لبعض الوقت، شعرت ببعض ارتياب ران، فقابلتها بنظرة رجاء أتبعتها برواية ما سبق، شردت ران لبعض الوقت، هاجت الأحزان بصدرها، انفلتت من بين أهدابها عبرة سارعت بإخفائها.. "لم تختبرني الحياة من جديد، هل يعقل أن أكون سببًا في فقدان ميكاتو لحياته! لا، لا يسعني النجاح في هذا الامتحان، ثم التفتت نحو شرفة مجاورة، حيث عانقت حبات المطر الزجاج في انسيابية تامة وبهدوء، حاولت النظر للخارج فحال ذلك دون رؤيتها، أذنت لتلك السدود المحكمة بالانفتاح؛ فسال على وجنتيها سيل مدرار من الدموع الحارقة: دموع الخوف، الحب، الأمل، الحزن، وكل

تلك الدموع التي ننزفها عند فقد من نحب، ثم شعرت بتلك الأنامل الحانية تربت على كتفها بهدوء ثم أتبعته بقولها: "أنا لا أريد أن أثقل عليكِ فوق ذلك، يؤلمني ما حدث كثيرًا، ولا بد أن أنصرف إلى لي كين الآن؛ فلا بد أنه بحاجة إلي.." ثم يممت نحو الباب، لتجد من يناديها محتضنًا إياها: "أمي، لا تقلقي، سيكون كل شيء بخير." فانفجرت أيكو في نوبة من البكاء حتى لم تكد تحملها قدماها، فأجلستها ران على كرسي مجاور، وبعد بضع دقائق، حاولت التدقيق في تلك القسمات التي يبدو أنها تغيرت كثيرًا، لقد أصبحت شابة في عمر الربيع، تلك القسمات التي لم تتذكرها لوهلتها الأولى ربما لفرط حزنها أو لتقدم عمرها، إلا أن الفتاة ران لم تنسَ أبدًا الإحسان الذي وهبتها أيكو إياه عندما كانت صغيرة، عندما كانت تفتقد إلى كل ذرة صغيرة من ذرات الحنان والأمان الذي جبلت عليه الأمهات، والآن موعد حصاد أيكو؛ فمن يفعل الخير لا يعدم جوازيه. ساد الصمت الموقف، ربما غادرت كل منهما نحو عالم آخر، تستجلب ذكريات انقضت وانتهى زمانها، كما أن طبيعة الموقف لا تستدعي إطالة الحديث. مرت نحو ساعة، نظرت أيكوو إلى تلك الفتاة الممددة على السرير، كأنها في سكينتها وهدوئها إحدى نفحات الجنان، ظلت تتبعها بنظرات من حين لآخر تستجدي استعادة وعيها، وقبلها يتمزق في كل ثانية، تخرج مع كل زفرة من أنفاسها إحدى أبعاض روحها، حتى أصدرت الفتاة نغمات مغمغمة توحي ببداية استعادة وعيها، فأسرعت ران نحو الخارج لتستدعي الطبيبة المشرفة على حالتها، فحضرت على الفور، وبدأت في سؤال الفتاة: "هل أنتِ بخير؟" لتجيب تلك الأخيرة بهذيان: "نعم، ولكن

أشعر أن رأسي قد اصطدم بصخرة كبيرة." ثم طفقت تفتح عينيها شيئًا فشيئًا، حتى اعتدلت في جلستها، ثم نظرت بدهشة إلى ما حولها قائلة: "أما زلت هنا حتى الآن، يا له من يوم طويل! إن هذا القرص المتوهج لم يبرح مكانه حتى الآن." ثم نظرت إلى ران قائلة: "تُرى هل تجمَّد الوقت؟" قابلتها ران بابتسامة مطمئنة وأخذت تمطرها بنظرات الحنان، حتى أنهت الطبيبة بعض الفحوصات لتقول: "لقد مرت أربع وعشرون ساعة، وكل وظائف جسمها الحيوية على ما يرام، يمكنها الانصراف الآن." لم تبدِ الفتاة أي اهتمام لما قالته الطبيبة فهي تعلم أن وظائف جسمها الحيوية بخير، إلا أن قلبها يوشك على الانفجار كبركان قد خمل منذ سنوات ثم عاد للحياة على حين غرة. في تلك الأثناء لم تنبس أيكو ببنت شفة كانت تراقب الملاك الصغير الذي قد أخذ الحسن من كل شيء: فمن الفصول ربيعها، ومن الزهور أذكاها وأعبقها، ومن الأيام أعيادها، ومن السماء شمسها وأقمارها وإن شئت لك أن تقول جميع أجسامها المضيئة لو اجتمعت لن تساويها، فقد كان جمال الإيمان هو ما يزينها، وبهاء الستر هو ما يغشاها، فهي جميلة إلى درجة تجعلك لا تستطيع أن تحول نظرتك عنها، أقبلت نحوها في هدوء قائلة: "أريد أن أطلب منك أمرًا ما، ولكن عديني أنكِ لن ترفضي." رفعت الفتاة حائرة الأنظار إليها طرفها وقالت بدهشة: "أنا، ماذا؟"

_ لو تأتي لتلقي نظرة على ولدي، فهو في حالة حرجة وقد قال الطبيب.. ثم انفجرت في البكاء والنحيب، سارعت ران نحو السيدة تُذهب روعها، وتستجدي ابنة عمها بنظرات متقطعة، والفتاة تهمس بداخلها: "أنا، كيف

يمكنني أن أذهب إلى حتفي طواعية؟ هذا مستحيل، تجلد أيها القلب الضعيف فما هي إلا دقائق معدودات.." ثم انهالت على السيدة بقولها: "كنت أود الحضور ولكن أعتذر بشدة، يؤسفني ما قد حدث لولدك.." وهي تبارح مكانها شيئًا فشيئًا تتجهز للرحيل. نظرت إليها أيكو نظرة يمازجها الرجاء والدموع تنهمر على وجنتيها، ولم تعقب بأية كلمة؛ فبعض الكلمات أكبر من أن تُحكى، أو تُبرر، أو تُقال؛ يكون الصمت في خلالها أبلغ من ألف كلمة! ثم يممت صوب الخارج ولم تلتفت روائها حتى. ذهبت تجر أذيال حزنها وحسرتها ويأسها، ليس لحالة ولدها، فلا بد أنها ستشفى، ولكن لحالة قلبه، فهذه هي الجروح التي لا يمكن أن تندمل حتى وإن عاقبتها القرون، صعدت نحو غرفة صغيرها لتنال قسطها من ويل زوجها المتسلط الذي كان يعنفها على أصغر إخفاق في حياة أبنائها. انهالت الصفعات على أيكو، وكيف أنها لا تستطيع حماية طير صغير على حسب ما وصف به ذلك التنين الهائج، لم يترك إصبعًا واحد للاتهام ولم يُشِر به نحوها، زادها فوق ألمها آلامًا، وجرعها من مرارة تضجره كؤوسًا، وهي التي أمضت نحو سبعة وعشرين عامًا سخَّرتها لتربية أبنائها الثلاثة، لم تدخر ولو معشار جزء من الثانية للاهتمام بنفسها أو أحلامها وطموحاتها، كانت تحلم بأحلام أبنائها الثلاثة ليلًا، وتستيقظ لتسعي في تحقيقها نهارًا، لم يكن منها إلا أن أمسكت بيد ولدها طريح الفراش لتستمد منه قوتها كما كانت تفعل في السابق، لقد سئمت من طول التعليل والتبرير الذي لا ينتهي. أمسكت حبل مواساتها الوحيد وانكفأت عليه تبكي بحرقة. كل دمعة تسيل على وجنتيها أشد حرقة من الحمم الملتهبة، لم تعد تسمع أو تبالي لما

يحدث من حولها، لا يهم ما يحدث، بل ما سوف يحدث عندما يستعيد كين وعيه. حاول ميكاتو أن يُهدِّئ من العاصفة الهوجاء التي تطوف في جنبات الغرفة الصغيرة حتى أفحم الجميع نداء لي كين: "سوكي هل أنتِ بخير؟" انقطع الوقت وسادت لحظة من الصمت التام. التفت لي تشانج مقطبًا ما بين حاجبيه، يرمق ولده بنظرة غاضبة: "سوكي!"

ثم عقبها بمزيد من الغضب: "ومن تلك السوكي إذًا؟" رفعت أيكو طرفها تسترق النظر نحو زوجها الحانق، ترتعش خوفًا ولم تجرؤ على الكلام، فابتلع ميكاتو كتلة من الصبار في حلقه ليقول: "إنها... الفتاة التي أنقذها كين من شفا حفرة الموت." ضرب المتعجرف بعصاه التي يحملها خيلاءً فهي مرصعة بقطع الألماس النادرة فكأن الأرض تشققت من تحت أقدامهم ليبتلع غضبه كل من في المكان، ثم قال بعدها: "وهل يضيع المرء حياته من أجل فتاة؟" ويزفر بحنق نحو أيكو ليردف: "اللعنة على الأم التي ربتك؛ لقد أفسدت عقولكم وأفهامكم." ليقطع ذلك الويل صوت من يطرق الباب ويخبر أنه الطبيب المشرف على الحالة، ثم يدلف من خلفه: قمر تجلى في آخر الشهر على غير عادة. هنا تجمد الوالد في مكانه، وسرت الرهبة إلى أعماقه المتعجرفة. الرهبة التي كاد أن ينسى كيفية الشعور بها، الرهبة التي أعادته زهاء ثلاثة عقود من عمره للوراء، يوم رأى ذلك الجمال للمرة الأولى في حياته، يوم كانت الفتيات تركضن من خلفه، لكن واحدة منهن قالت: "معاذ الله." ولكن كيف، هل تسول له ناظريه رؤية ما مضى، أم أن الأقدار لها معه حساب آخر؟ ران صمت طويل على المشهد لم ينهِه سوى كلمات أيكو: "تفضلي يا ابنتي، لن أنسى معروفكِ هذا ما حييت."

أما زوجها فاكتفى بنظرة من يأكله الحقد، نظر للفتاة يتطاير الشرر من عينيه ثم قصد الخارج إلى غير رجعة..

سارت الفتاة نحو الشاب الممدد على الفراش تسحب أقدامها، تقدم واحدة وتؤخر الأخرى، كأنها تسير نحو حتفها الذي وسمت آنفًا، لكن الحالة التي كان عليها كين كفيلة بأن تذيب جليد القطبين ليُغرقا العالم بأكمله، الشاب الذي تغيرت معظم ملامحه، هنا خدوش وهناك كسور، كدمات متفرقة على سائر أجزاء وجهه ويديه، رأسه المضمد فلا يكاد يرى من وجهه سوى القليل. الأمر الذي يُوحي بتعرضه للكثير من الأذى، وأنها بعد الله كانت هالكة دونه لا محالة. لم تستطع الفتاة كبح نفسها، فانهالت الدموع كزخات المطر الدافئة على وجنتيها، وكلما حاولت أن تخفيها أو توقفها ازدادت غزارة؛ لتنبأ عما بداخلها من اهتمام بأمر ذلك الشاب، الذي أنقذها من بين فكي الموت مرتين وأعاد إليها حياتها. لم تندهش الفتاة من كون لي كين منقذها، بل رددت بداخلها: "إن لم يكن ذلك الشبح فمن يكون إذًا؟" ثم راحت تتذكر أول مرة أنقذ حياتها أعلى الجسر. "ما هذه الأقدار التي تقذفني نحو شاطئيك، كلما أبحرت يلتهمني التيار، يسحبني نحو عباب أمواجك، وخضم أهوالك، لم أعد أعرف شاطئًا لنفسي، لم أعد أهتدي إلى ذاتي، إلى قلبي، إلى عقلي الذي يخبرني أن اهربي بعيدًا، بينما تجمدت قدماي ولم أستطع مغادرة المشفى إطلاقًا، أي إحساس هذا، أي شعور يقذف في قلبي؟ اللهم لا تبتليني بعذاب الحب وتباريحه؛ فأنا أضعف من أحمل قلبًا خاليًا، فكيف يكون حالي إذا أُشْرِب من كأس الحب الدامي؟" وهناك من تطرف عيناه وتتحرك أجفانه باضطراب، تنفتح

أهدابه كأنما سيفيق ثم يغلقهما بشدة كأنما التهمه شبح الموت وهو يردد ذات العبارة: "سوكي هل أنتِ بخير؟" وكلما رددها تنفجر الفتاة في نوبة من البكاء الذي لم تعد تقدر على إيقافه، أو كبحه... حتى تمكن الشاب من فتح عينيه بوهن، ليجد الفتاة تقف بجواره حيث يتمدد، يغلق عينيه ببطء ثم يفتحهما بذات الوهن السابق قائلًا: "سوكي! هل هذه أنتِ حقًا، أم أنني في أحد أحلامي! أرجو أن يكون الأمر حقيقة، وإن كان حلمًا فأرجو ألا أستيقظ منه أبدًا..."

أجهشت الفتاة في بكاء عالٍ، لا تقدر على الكلام ولا تحاول حتى، لا تجد ما يُقال، على الرغم من أنها ليست سوكي ولم ولن تكونها يومًا؛ إلا أن نداء القلوب أعظم بكثير من تلك الألقاب والمسميات، إنها ليست سوكي على الإطلاق. ولكن فلتكن بالنسبة إليه، لتكن سعادته، فكل منا يلقب الآخرين بمسميات يخفيها في ذات قلبه ولا يحدِّث بها أحدًا، إلا أنها تظهر كثيرًا في أفعالنا، نظرات أعيننا، اضطراب جوانحنا عند رؤية من نحب. فنجد كل تلك الكلمات مبعثرة حتى لو حاولنا إعادة تنميقها وكتابتها، ستتبخر كذرات التراب في مهب الريح العاتية. لم يكتفِ الفتى بذلك السؤال، بل شرع في رواية تلك الحادث هاذيًا بقوله: "أتمنى ألا تتركيني أبدًا، لا تدعي الظلام يسكن داخلي من جديد." ثم يأخذ شهيقًا يتبعه بقوله: "هل تعديني بذلك؟؟"

فتأخذ الفتاة نوبة جديدة من البكاء، ويغلق لي كين أهدابه ليعود إلى ذات الحال السابق، كل هذا وران تحملق بعينها تقول بداخلها: "هل ما يحدث الآن حقيقة، أم ضرب من الخيال؟! كيف تأثرت الفتاة إلى هذا الحد، وقد

كانت تستجديها للحضور فقط، ومن أين لها بمعرفة لي كين؟" كل هذه العبرات لا تنزف سدى، إنها صادقة، كصدق قلب من يذرفها، وصدق يقينه بحب الآخر، فالحب هو اليقين قبل كل شيء، كلما زاد إيماننا به، كلما وجدناه، حتى أنه ليطوق الجبال الرواسي، فتتصدع وتهوى أمامه رفاتًا، الحب الذي إذا صدق يفتت الحجر الأصم، فكيف بقلب تلك الفراشة الرقيقة.."

مر الوقت، ثم تمتم الشاب بذات الكلمات فلم تتمالك الفتاة نفسها وهرولت مسرعة إلى الخارج، فتبعتها ران مسرعة؛ خشية أن تصاب بالأذى فهي في حالة تعجز عن استيعاب ما يحدث حولها. اقتادت ران الفتاة نحو المنزل، أمسكت بيدها حتى دخلت إلى غرفتها، أحضرت لها كوبًا دافئًا من القهوة الخضراء التي رافقتها في كل مواقفها الصعبة والعتيدة، ثم تركتها وانصرفت، فلا بُد أن لنفسها حديثًا معها سيدوم طويلًا..

أمضت الفتاة ساعات الليل ما بين الصلاة والدعاء والبكاء، الذي تعددت أسبابه بين الخوف والرجاء الذي لا ينقطع بالله -عز وجل- والإشفاق على ذلك الشاب القابع بتلك المشفى يحيا حياة برزخية وإن كانت بأنفاس. تفكر وتفكر وتعتصر في داخلها كيف ستفلت من زمام هذا الحب، كيف ستنكر الحقيقة التي ما زالت تجحدها في نفسها طوال الفترة التي مضت، إنها الآن على يقين تام بأن هناك ما يتأجج بداخلها، ونيران تضرم بقلبها، ظلت حتى آخر ساعات الليل ما بين مد وجزر من نوبات البكاء، وسحائب التفكير القاتل، حتى لاح الوقت الفاصل بين الخيط الأبيض والأسود، وأطلق هاتفها نغمات الأذان الموشاة بأنغام الحرم المكي، نظرت الفتاة عبر

النافذة المجاورة، فإذا النور يشق داخل الظلام، وتذوب ظلمة الليل الحالك مع أول سهم ترسله الهالة المضيئة، أخذ ستار الليل ينزاح بروية ليعاقبه ضوء النهار الذي سرى شيء من ضيائه إلى نفس الفتاة، عبقت رئتيها بأنفاس الصباح النقية، فتنفس صدرها الصعداء كما تنفس الصبح أنسامه المشرقة، عندها وجدت سؤلها وبغيتها. إن أشد ظلمات الليل هي من يخرج من رحمها النهار، وتلك الجنح المظلمة هي التي ترينا الضياء، ولو الابتلاء لما تذوقنا المعافاة. نفضت الفتاة غبار الحزن عن وجهها، ورسمت ابتسامة مضيئة أشد إشراقًا من شمس الضحى التي بالخارج، وراحت تردد في نفسها: "لقد أنقذ حياتي مرتين، واليوم سأهدي إليه نفسه وروحه وللأبد." ثم عمدت إلى كتاب على المنضدة بجانب سريرها، تصفحت أوراقه على عجل وألحقته بقرص مدمج لسورة يوسف، وخرجت لتصاحبها ران في الزيارة. لم تبد ران أية تساؤلات إزاء ما قد حدث بالأمس، اكتفت بالاطمئنان على الفتاة، أجابت الفتاة بالإيجاب وبدت سعيدة، وإن كانت عيناها لا تكاد تفتح من شدة بكائها وتواصله..

وصلت الحافلة إلى المشفى، ترجلت عنها الفتاتان، شعرت الفتاة ببعض الخوف والقلق يسري بداخلها، توقفت عند مدخل المشفى، ارتبكت قليلًا، ثم أخذت شهيقًا طويلًا ومضت للداخل، سارت نحو غرفة كين، استقبلتها أيكو بحفاوة بالغة بالرغم من شدة الموقف، قامت وأجلستها في مكانها بقولها: "تفضلي يا ابنتي." وعنت ما قالته حقًا، فعيناها تنبض بالحب والعطف الخاص بالأمهات. أفاق لي كين ليجد الفتاة أمامه، فانتفض من مكانه واعتدل جالسًا، أصابه الدوار لسرعة قيامه، ففزعت الفتاة

وهمّت بمساعدته، وحين مدت يدها باتجاهه قبضتهما فجأة ثم انزوت في أحد أركان الغرفة، تواجه عاصفةً من الارتباك؛ مما دفع أيكو لاستدراك الموقف بقولها: "ها قد أتت سوكي." فتقبل الفتاة في حياء يقتلها التوتر بداخلها، ليجيب كين بنصف وعي: "سوكي، لقد رأيتكِ بحلمي بالأمس، كادت تصدمك سيارة، لكني أنقذت حياتك كما فعلت سلفًا أعلى الجسر." ثم يهم بالقيام فلا يقوى على الحركة ويصدر صرخة ألم مدوية تهتز أوتار الفتاة عند سماعها، وتقشعر منها كل أنملة في جسدها، ليحضر على إثرها الطبيب ليقول: "يبدو أن وظائفه الدماغية قد استعادت عملها، فهو يفكر ويتذكر، ويميز الأشخاص. كل شيء بخير، ويستطيع أن يغادر في خلال يومين." ابتسمت الفتاة وشعرت براحة كبيرة، ذهب جزء كبير من عتاب ضميرها وعذابه، أخرجت من حقيبتها ما قد أحضرته من أجل الشاب. أهدته لأيكو التي تلمع عينيها بالسعادة، ثم تغادر الغرفة لتصطدم خارجًا بالتنين الثائر الذي رمقها بنظرة حانقة كانت أشد رعبًا من أسوأ كابوس قد شاهدته يومًا، ارتعدت فرائس الفتاة، وتجمدت لا تحرك ساكنًا حتى جذبتها ران إثر قول الرجل: "إن أسوأ ما قد أواجه هو رؤية هذه الأوجه في الصباح، لا أدري كيف فرط بحياته في مقابل أن ينقذ مسلمة..." وتركتاه يكتوي بنيرانه قاصدتين المنزل مباشرة..

في الأيام القليلة التالية، بدأ الشاب يستعيد عافيته شيئًا فشيئًا، تخللت تلك المدة بعض الزيارات المتقطعة القصيرة من الفتاة، كانت تحرص في كل مرة على أن تكون دعوة في نفسها، في أدبها، حيائها، أخلاقها، حتى في لباسها الساتر الأنيق، كانت تلك الفتاة "أمة" في نفسها، تدعو للإسلام بكل شهيق

تأخذه، من يراها يعجب بدينها وما جبلت عليه، وكيف لا تكون كذلك و"الدين المعاملة".

انقضت المدة التي قررها الطبيب، حزمت أيكو أمتعة ولدها، وسارا بخطى حثيثة نحو الخارج أثناء حضور الفتاة التي تهلل قلب الفتى فرحًا لرؤيتها ولكن سرعان ما تبدلت حاله لإخبارها بالرحيل، ومغادرة شنجهاي، شعر الفتى أن كل أحلامه تتلاشى مع غروب الشمس، كل ما أعد له من حكايا لن تُروى، ولقاءات لن تتم، كل تلك المصادفات لن تحدث، أطبق الظلام على قلبه الذي لم يعتد على افتقاد أحد يستوي عنده كل الخلق حضورًا وغيابًا، لم يدرِ أن هناك من سيحطم كبريائه ويعلمه الحياة، أو ليعلمه الحب الذي سيعيد إليه الحياة..

التفتت الفتاة لدى مغادرتها عدة مرات، في كل مرة حاولت أن تمسك زمامها إلا أن محاولاتها بائت بالفشل، التفتت تودع شنجهاي، تودع شوارعها، الناطحات المعانقة لأفق سحابها، ضجيجها الذي ينبض بداخلها. التفتت تودع ذكريات مضت، لكنها ستحيا بداخلها للأبد. التفتت تودع لي كين الذي لم يعد بمثابة شبح بالنسبة إليها..

طوى القطار تلك المسافة سريعًا لتصل الفتاة إلى ووهان التي فارقتها بنفس وعادت إليها بأخرى. تشعر أنها تركت بعض روحها بشنجهاي، تركت بعض نبضات قلبها، بعض أيامها التي لن تعود إلا كذكرى عابرة، تداعب خاطرها من حين لآخر، أو هكذا ظنت. توهمت أن تنتهي فصول تلك الحكاية ها هنا وأنها ستعود إلى سابق حياتها وعهدها..

وصلت إلى البناية التي تقطنها فوجدت مجوعة من رفيقاتها بالانتظار، فرحت كثيرًا لرؤية يوري رفقية دربها التي كانت بمثابة العصا التي تتكأ عليها دومًا، استغرقت الزيارة نحو الساعتين، قضتهما الفتاة ما بين تصنع الانتباه والشرود ومحاولة مسايرة ما يجري، إلا أن عقلها ينازعها التفكير، وقلبها ينازعها الصبر، نفسها أسيرة ذكراها، وليس هناك ما هو أعظم من أسر الذكريات التي لا تزال تفتك بعقل صاحبها حتى يغدو جسدًا بلا روح.

دخلت الفتاة محرابها تدافع التفكير فيما حدث، توضأت وأتت بتلك الصفحات المضيئة التي كانت وما زالت شفائها الأول والأخير، رتلت بعض الآيات بصوتها الرخيم الحاني، لم تتمالك الدموع على وجنتيها، ولم ترغب في إيقافها أو كتمانها، بكت حتى أذهبت ظمأ نفسها، وإن من البكاء ما شفى! دعت أن يذهب عنها الحزن، أن يربط على قلبها، أن يجبر كسرها، حتى هدأ داخلها، وسطا النوم على جفونها، فلم تستيقظ سوى في المساء.

نظرت في حيرة إلى ما حولها كأنما فقدت قسطًا من الذكريات المتعلقة بالعودة، أخذت شهيقًا طويلًا بإزاء النافذة المعلنة لوصول الليل، اتجهت لتعد شاي الزنجبيل الساخن، فلعله يذهب بعضًا من غليان رأسها ألمًا، ارتشفت القليل بينما تطالع نجمات الأفق، التي حلقت بها بعيدًا نحو أحلامها وطموحاتها، تذكرت ما كانت تردد في نفسها دومًا بأنها ستكون البدر بين النجوم، والشمس بين الكواكب، ستكون القمة بين السهول، ستكون الواحة في الصحراء، والفردوس من الجنان، لن تتنازل عن أمل الوصول.. ثم انتبهت على امتداد ظل أمامها، التفت بهدوء لتجد يوري التي لم تنتبه لعودتها للمنزل، كانت يوري في حالة كاملة من الذهول، تحملق

ملء عينها بالفتاة الحالمة، مذهولة بالكم غير المتناهي من الصفاء والسلام الذي جاهدت للحصول عليه مرارًا، لوحت الفتاة أمام ناظريها: "يوري، هل هناك أمر ما؟" حركت يوري رأسها بسرعة ذهابًا وإيابًا وأطرفت مسرعة لتقول: "لا، كنت أراقبكِ فحسب، أخبريني هل تمارسين اليوجا خلسة من خلف ظهري؟"

ابتسمت الفتاة لترى انعكاس حبات السماء في فمها قائلة: "بالطبع لا، ولكن هناك ما هو أكثر انشراحًا من ذلك، تطرقين بابه بالقمم الرواسي تحدب قلبكِ من الوهن، ثم تعودين كأنكِ فراشة ترفرف للمرة الأولى في حياتها، كأن بداخلكِ قلب عصفور صغير لم يخلق سوى للتحليق." أومأت يوري برأسها قائلة: "لقد انتظرتك طويلًا، هناك ما أريد أن أخبركِ به، لمَ تأخرت عودتكِ؟"

تنهدت الفتاة وقبل أن تنبس ببنت شفة أردفت يوري: "لن تصدقي ما حدث! أظن أن رفيقتك واقعة في حب أحدهم.." ثم زادت: "لقد تعرفت عليه منذ شهر تقريبًا. موظف جديد في الشركة التي أعمل بها؛ مسئول عن قسم المبيعات، لم ألتفت إليه لقامته الطوية نسيبًا، أو عينيه السوداوين، أو ابتسامته الآسرة كما فعلت الأخريات، بل جذبني إليه شيء آخر.." ثم تنبهت إلى صمت الفتاة وشرودها فقالت: "ألا تريدين سؤالي عن هذا الشيء؟" أومأت الفتاة بفتور فقابلتها يوري بسيل من الجمل المتتابعة: "إن ما جذبني حقًا إلى هذا الشاب هو أخلاقه، احترامه للصغير في الشركة قبل الكبير، تواضعه، سعة صدره، ، سلاسته في التعامل مع غيره، شخص لا تهددك نظراته المُعَنِّفة عند أصغر أخطائك، تشعرين أن السماحة قد أخذت

من جميع الخلق ثم وضعت بداخله.." ثم تنهدت شاردة: "لو أنكِ رأيته يومًا لحسبتِه توأمكِ صفاءً." ثم رفعت حاجبيها وأضافت: "غير أني أظنه غير مسلم، أو هكذا أظن، قلما أصادف مثل هذا النقاء من غير المسلمين في مثل هذا المجتمع الذي جعل ركيزته الأولى المادة، ثم المادة، ثم العمل والإنتاج، ثم بعض المباديء التي تعين على كليهما. أشعر أن هذا حب غير متبادل، أو نصف لوحة مبعثرة الألوان." ثم صاحت بها.. "أنت يا فتاة. لم لا تجيبين، هل انتظرتك طوال هذه الفترة حتى أرى جمود تلك الملامح الأن؟" صمتت الفتاة لبرهة، أمسكت بيدي رفيقتها، نظرت بعينها قائلة: "أرى أن الحب ليس بهذه البساطة التي تحدثتِ عنها آنفًا، كما أنه ليس معقدًا كما يظنون، لكنه يحتاج إلى الكثير من الوقت حتى ينضج ويكتمل، حتى يذهب زبد الإعجاب الفاني جفاء، ويبقى الحب الحقيقي، البعيد كل البعد عما يرى ويشاهد بل ما يشعر به، الذي يوم يقع في قلبك لن تملكي تمييزه من بين نبضاتك، ستشعرين به يخالط كل شيء: أنفاسك، عقلك، طموحك، عالمك بأسره سيظل يحيا بين أحرف من تحبين، كأنه الكلمة السحرية نحو دنيا سعادتك، يوم يقع الحب في قلبك، يستوي عندك حضور وغياب من تحبين؛ لأنه يحيا بداخلك قبل كل شيء، ولقاء تلك الجوارح ما هو إلا نافلة في عالم المحبين، يوم يقع الحب في قلبك سيهوي رأسًا على عقب، ويجعل عاليه سافله، القليلون جدًا من عرفوا الحب بمعناه، واهتدوا إلى حقيقته، لذا فقد خلدوا ذكرهم في قاموس المحبين إلى قيام الساعة. لكنه كما ذكرتُ لكِ، ليس من أول نظرة ولا لقاء." قطبت يوري ما بين حاجبيها ناظرة بكل دهشة إلى الفتاة لتقول: "هل أنتِ بخير، أشعر أنكِ

محمومة أو ما شابه، من أين تدفق ينبوع الشعر هذا؟ هل استحضرتِ روح الشاعر لي باي."

ـ إنني بخير تمامًا، وبكامل قواي العقلية أيضًا. ضحكت يوري بصوت مرتفع واضعة يدها على جبهتها ذهولًا: "لقد أكسبتك الطبيعة في شنجهاي نفسًا شاعريًا، لقد نسيت تمامًا، كيف كانت رحلتكِ، ولم تأخرتِ؟"

انعقد لسان الفتاة لثانية ثم استعانت ببعض الهواء تضخه برئتيها قائلة: كانت الرحلة جيدة، لا بأس بها إطلاقًا، شنجهاي مدينة رائعة تجمع بين الهدوء وتنبض بالحياة في آن واحد، قطعت خطوتين نحو النافذة أسرحت ناظريها في ثنايا الأفق وأخذها الصمت، فكررت يوري: "ولم تأخرتِ في العودة؟"

ـتنهدت الفتاة قبل أن تعود لتجيب: "إنها قصة طويلة، ولا أرغب في تذكرها، لك أن تقولي كدت أن أكون في عداد الموتى إلا أن أحدهم قد أنقذ حياتي." فغرت يوري فمها واضعة يدها عليه: "أنقذ أحدهم حياتك؟!" ثم أمطرتها بوابل من الأسئلة المتتالية: "هل هو رجل أم إمراة؟

وكيف وقع الحادث؟

هل أصبتِ؟

كيف حال منقذكِ؟"

وقبل أن تحشد يوري جميع مفردات اللغة أحابتها الفتاة ببرود: "لقد كان ذلك الشبح الذي أنقذني سلفًا.." ثم ابتلعت كلماتها وأعادت: "أعني الشاب هذا الذي أنقذني أعلى الجسر." رفعت يوري حاجبيها دهشة قائلة:

"لا يمكن، كيف حدث هذا، هنا ووهان، شنجهاي، الشخص ذاته، مرتين!" محركة يدها لتصنع دومات هوائية فيوري على وشك أن تفقد عقلها ذهولًا. جلست الفتاة على طرف سريرها بعد أن جذبت يوري بهدوء من كتفها لتجلسها وتقول: "ليس مستحيلًا، إنه القدر.. غادرت ووهان لأنسى ما حدث، فإذا بي قد غادرت إلى عرينه ومسكنه، حتى إنه ليسكن في الناطحة المقابلة لتلك التي تقطنها ران.." حركت يوري عينها يمنة ويسرة: "لا أصدق."

فأردفت الفتاة: "لا ليس هذا فقط، بل إن ران على علاقة بأخيه منذ سنوات عدة، لقد كان يلاحقني بكل زاوية، وفي كل اتجاه، أفر منه إليه، وأتركه لأعود إلى موضعه، لم أتجرأ على الخروج ولو لمرة واحدة في ساعة من ليل أو نهار إلا وجدته أمامي، حتى أنني أخشى فتح الباب الآن لأجده يجلس خارجًا." أغمضت يوري عينها تنفست ببطء وراحت تحاول العد إلى الرقم خمسة ثم أطلقت زفيرًا طويلًا فقالت: "لنفترض أن كل هذا قد حدث، كيف سلبك من براثن الموت للمرة الثانية؟!"

جلست الفتاة متربعة على السرير، أخذت شهيقًا طويلًا أخرجت كل ذرة من ثاني أكسيد الكربون على حدة ثم قالت:

"لقد كنت أتناول الغداء في مطعم (فابين) ثم خرجت للتمشية وإلقاء نظرة على الأرجاء، كان يجول بخاطري عدة أفكار متداخلة، وبينما كنت أحاول فصل بعضها عن بعض، إذ رأيت تلك الفتاة متجمدة في مكانها كأنما التصقت بالأرض وهي تصرخ ثم أغمضت عينها بشدة، جذبتها إليّ

مسرعًا، فدفعتني بشدة لتسقط على الرصيف ويصطدم رأسي بعمود الإنارة، ولا أذكر شيئًا بعد ذلك سوى أنني حلمت بها ربما مرة أو مرتين تبكي جوار سريري بالمشفى، ثم جاءت بعدها لزيارتي ولا أذكر كم مرة أتت، إلا أنني أتذكر جيدًا يوم رحلت، أتذكر رحيلها الذي ذهب ببعض روحي شيئًا فشيئًا، وأنها أخذت أغلى ما أملك آن رحيلها، أتذكر كيف تركتني أحسب الثواني قبل الأيام حتى العام القمري القادم، أتذكر التفاتتها التي كانت تنير شمس أملي كلما فعلت، وددت لو لحقت بها، وتشبثت بطرف ثيابها كما يفعل الصغير مع أمه، لو منعتها من الرحيل، لو استطعت أن أقتطع جزءًا من أضلعي وأسكنتها إلى جوار قلبي حيث تنتمي، وددت لو أنها لم ترحل، فلتصيبني الحوادث كل ساعة ولا أكتوي بنيران هجرها لحظة. وددت لو أني أخترع آلة زمنية، وأعود بالزمن حيث كانت هنا، ثم أجمد الوقت، فلا ترف لي عين لا تنظر إليها، وتعانق وجهها المضيء، كانت الابتسامة هي الصدى الوحيد على وجه ميكاتو العاشق لما يقوله كين، وكيف لا، وليس من راءٍ كمن سمع! هل يعقل ما أسمعه الآن، هل هذا هو كين الذي يردد لا حقيقة إلا شيء واحد وهي العلم؟! لا حياة سوى حياة واحدة وهي العمل. حقًا إن للحب مفعول السحر، كيف أذاب قلب جاحد المشاعر هذا؟ هزه كين بشدة ونظر إليه معاتبًا: "ميكاتو، هل تسمع ما أحدثك به، أم أنك مع تلك الفتاة ران، أو أيًا كان ما تدعى به؟"

قابله ميكاتو بابتسامة هادئة قائلًا: "بل أسمعك، ولكني كنت أسأل نفسي، هل ما يحدث حقيقة أم مجرد وهم زائف!"

رمقه كين بغضب لا بل حقيقة فأنا الوحيد الذي يهذي بهذا المنزل.

_لا، بل كل ما قلت حقيقة، وقد حدث فعلًا، قابله كين بذهول مشوب بالتساؤل: "حقًا، كل شيء؟!"

_نعم، حرفيًا..

_تنفس لي الصعداء، وأفرج فمه عن ابتسامة عريضة معقبًا: "لقد أراحتني كلماتك، فهذا يعني أنها تحبني.." ثم خففت السعادة فجأة ليضيف: "أو مهتمة بأمري.."

_ما سبب قولك هذا؟

_صمت لبرهة ثم قال بأسى: "عندما دفعتني بعيدًا عنها، شعرت أنها لا تود الاقتراب إلى هذا الحد."

_هذا أمر طبيعي تمامًا في علاقات المسلمين، فالمرأة لا تلمس يدها حتى من لا يحل لها.

رفع كين ناظريه باتجاه ميكاتو ليضيف الأخير: "نعم، إنهم يحترمون ويقدسون حرية الأشخاص حتى أنهم لا يصيبهم مجرد إيذاء نفسي من لمس من لا يريدون، والطبيعة والفطرة والحياء تفترض أنهم لا يصافحون الغرباء." استحوذت حالة من الذهول التام على كين وأطرق يفكر: "حبيبتي سوكي لم تصافح أي غريب يومًا ما، لم يرَ شعرها غريب، لم تتحدث بغير حاجة مع غريب، إنك محظوظ حقًا يا كين، ثم التفت نحو أخيه متسائلًا: "ولكن من أين علمت ذلك؟"

_ بابتسامة مشرقة: "ران أخبرتني بعض الأشياء التي عهدتها خلال فترة إقامة الفتاة لديها.."

_ارتشف كين قليلًا من منقوع البابونج وأضاف: "أخبرني ميكاتو، هل تخطط حقًا لإكمال حياتك مع ران؟"

_ ربما هذا الشيء الوحيد الذي لم أخطط له في حياتي، بل صار دستوري، ومنيتي، ومبتغاي الوحيد أن أظل مع ران حتى بعد أن تنتهي الحياة، وتفنى العوالم، وتنقرض المجرة بأكملها، لقد ادخرتها في قلبي ما دام ينبض أو تنبض هي، ولا أقدر أن أتخيل نفسي دونها طرفة عين، ضحك لي كين عاليًا: "إنك متيم حقًا يا فتى، فهل لي أن أسألك شيئًا آخر: هل يموت الحب بالسنين؟"

_ الحب لا يعرف الحب لا يعرف الزمان أو السنين، وإن كان عليه الاعتراف بتلك التواريخ العابرة فهي في حقيقة الأمر تزيده وتضاعفه، ليس يهم الزمن أو المكان، فلو كنت في طرف الكوكب ومن تحب في أقصى طرفه الآخر، ستشعر به، لأنه اتصال قلبين، وتشاطر نفسين وامتزاج روحين قبل كل شيء..

_إذًا سأخضع ذلك الحب لاختبار، إن استمر حتى العام القمري القادم، عندها سأعلم إن كان حبًا حقيقيًا، وإلا سأنهي هذه المسرحية قبل أن تطول فصولها أكثر مما يجب..

التفت ميكاتو ونظر إليه بنصف طرف: "نحن لا نختبر الحب، إنما هو من يقيمنا كمحبين حقيقين، إنا كنا نستحق أن نوسم به أم لا، ثم إياك أن تفكر بهذا الأمر، فقد ينهار حبك بأكمله، عندها ستفقد قلبك إلى الأبد.."

قابله كين بنظرة حالمة، عين تومض ببريق الأمل والسعادة، سأحصل عليها، سأجعلها ملكة لقلبي مهما كلفني الأمر، لن أتنازل أبدًا..

ثم يسبح في خيال معلقًا بدرر السماء الفاتنة، التي لا تفرض تأثيرًا على كين وحده، بل أنهت الفتاة جلستها السالفة ورابطت بالشرفة، بجانب باقات الأقحوان، تهمس في آذان الجوري الأبيض، ثم تنحني وتعبق رئتيها من أريج نظيره الأحمر، تداعب أطرافها أوراق الرياحين، تزيل ما علق بها من غبار أثناء رحيلها، ثم تطالع اللآلئ المضيئة، سكون الليل، ضوء القمر الهاديء، عبق الزهور والرياحين، كفيل بأن يضفي عليها من الراحة والصفاء ما تعجز الألسنة عن ترجمته، تنهدت تناجي القمر: "ترى هل سيبرأ ألمي، ويندمل جرحي، هل سأتجاوز أعتاب هذه الظلمة نحو أنفاس الصباح المشرقة، أين أنا، وأين الحب مني، ومن تباريحه، وآلامه، أين أنا؟ اللهم اشدد على هذا الضعيف فلا يعاني، اللهم اربط على قلبي فلا يهوى في العذاب المقيم، اللهم عافني من هوى نفسي ومن كل هوى يرديني، واكتب لي الخير حيث كان ثم ارضني به..." ثم دلفت للداخل مجيبة نداء يوري المتتابع: "الطعام جاهز.."

في الصباح التالي، استيقظ كين على رائحة شاي أولونج وأصوات ارتطام الملعقة أثناء دورانها بالإبريق الخزفي، سارع بارتداء عيناويه الكبيرتين، وقف بجانب النافذة ممدِدًا يديه لأعلى مستنشقًا كتلة كبيرة من الهواء، حرص على إخراج كل ذرة منها بهدوء، استغرقه الأمر بضع دقائق لتكرار الأمر، مارس بعض عاداته اليومية قبل أن يخرج إلى صالة المنزل حيث يجلس كل من أيكو وميكاتو لاحتساء الشاي، بادله الجميع بنظرة ترحاب

وسرور، أفسح له ميكاتو مكانًا للجلوس على تلك الأريكة الصغيرة، كما حرصت أيوكو على تقديم فنجان من شاي أولونج لولدها احتفاءً به، واحتفالًا بسلامته، قابلها بابتسامة دافئة كالشمس التي بدأت تلوح في الأفق، وأومأ برأسه تعبيرًا عن امتنانه، ارتشف القليل ثم سأل مترددًا: "أمي، هل تعتقدين أن أبي يعرف سوكي من قبل؟"

_سوكي؟

_أقصد تلك الفتاة التي التقيتها بالمشفي، سوكي..

_إنها ليست بسوكي مطلقًا، فلها اسم من أحرف عربية، لا أذكره، لكنه جميل، منغم، يشعرك بالراحة، لقد أحببت تلك الفتاة، سماحتها، حيائها، أخلاقها، إنها جديرة بقلبك يا بني..

سعل كين في محاولة منه للتشويش على كلام أيكو مما دفع ميكاتو للضحك عاليًا مربتًا على كتفه: "لا عليك يا فتى، لقد علمت ذلك منذ اللحظة الأولى التي صادفنا فيها الفتاة." ثم نظر إلى عينه مباشرة مسددًا.. "إن هذا الحب أصعب من أن تخفيه، إنه يبدو ببريق عينك، باضطراب جوانحك، فقدانك السيطرة أو الشعور بمن وما حولك، حتى أنك تفقد نفسك شيئًا فشيئًا وتهجر الكثير من طباعك في سبيل من تحب. إنه يوم يصيبك يغير عالمك بأكمله، كما أن نظرة المحبين تلك أعصى من أن تُوارى، ولكن لا تقلق لن يعرف والدنا بالأمر مطلقًا." صفن كين في تزاحم سيارات الجادة المقابلة وأتبع شاردًا: "والدنا، هل تظن ذلك حقًا؟"

اهتز الكوب بيدي أيكو، انسكب البعض على الطبق بيدها الأخرى، التفت كين قائلًا: "أمي، هل تخفين شيئًا ما؟"

وضعت أيكو الكوب على الطاولة المستديرة بجانبها، وضعت يدها على عنقها في محاولة منها لمدافعة الغصة التي أصابتها، ابتعلت بعض الأشواك التي تسد حلقها ثم قالت: "لقد بدأ الأمر عندما تزوجت والدكما، كان الزواج في ذلك الوقت مختلفًا عن الآن، جاء إلى منزل والدي، تناول معهم بعض الشاي، تعرفت إلى والدته على انفراد، ثم جاء في المرة التالية بعدها بحوالي ستة أشهر أقمنا حفلًا بسيطًا، ثم رحل بي إلى غير رجعة، لم يكن على هذا القدر من الثراء حينها، كان موظفًا متواضعًا بإحدى الشركات، لكنه حينها كان يحبني ويقدرني بشدة، وفي أحد الأيام، ابتلي بحب فتاة، لم تعنيه انتباهًا أبدًا، حتى لو تجمد في ثلوج الشتاء في سبيل انتظار رؤيتها، لكنه كان مقتنعًا بما ادعته نفسه، حتى شغف قلبه بحبها تماما، وبدأت معاملته تختلف معي. بدأ يتذمر من طابع الحياة، ومن طريقتي، ومن كل شيء من حوله! حتى ذهبت خفية إلى الشركة وأخبرني أحد أصدقائه بما سبق، بعدها بدأت حالته تسوء مع تقدم الأيام، عقد بيننا مقارنات، وكيف أنها تتمتع بقامة طويلة نسيبًا، كيف أن عينها مشوبة باتساع جميل، كيف أن وجهها يشع بالبريق؟ تسللت خلفه في أحد الأيام، لأرى عشقه الذي لم يعد يستحي من أن يعلنه، فوجدتها كأنها من توزع الجمال على بقية الخلق، لقد أشبهت تلك الفتاة فتاتك إلى حد التطابق، أدركت أنها إحدى معاركي الخاسرة، استسلمت للأمر، لم أعد أبدي اهتمامًا أو انزعاجًا، أصبحت كالصخرة الصماء المجردة عن الشعور." ثم انفجرت أيكو بالبكاء، سارع

كين بضمها إلى صدره، لكنها مسحت دموعها المنهمرة كالسيل، وأردفت: "لقد وافقت على أن يتزوجها إن كانت هي دواؤه، ومفتاح سعادته. وهذا هو الحب، أن تتخلى عن سعادتك في مقابل من تحب، لا أستطيع أن أصف لك مدى سعادة والدك بالأمر، لقد وثب عاليًا، واضعًا قبلة على جبيني، كانت تلك آخر بقايا حبي بداخله، الحب الذي سقط لحظة خلسة، لا لشيء سوى لأنه أطلق لنفسه عنان النظر إلى غير ما يملك. متجاهلًا الحب الذي كان له، أخذ باقة عطرة من أزهار الأقحوان البيضاء، توجه صوب منزلها، وفور نزولها بصحبة رجل بدا من بني جلدتنا، تقدم نحوهما مباشرة، وتقدم لخطبتها، نظر إلى الرجل بدهشة كبيرة، وأردف بهدوء: "هل تريد الزواج بزوجتي؟"

ثم تجاوزاه بدون أية كلمة أخرى، بالطبع كنت أراقب ما يحدث، كدت أن ألتصق بالسماء من شدة السعادة، شعرت بالنبض في قلبي من جديد، وأن شراييني ارتوت بماء الحياة من جديد. رحت أردد لقد انتهى كابوسي الآن، اليوم سأغلق نفق الحزن ذلك، وأبني جسري نحو السعادة، لم أشعر بما حدث بعدها، عدت أدراجي سريعًا، أعددت الطعام الذي يحبه والدكما، صنعت منقوع الزعفران وأضفت عليه قطرات من ماء الورد، عطرت المنزل برائحة الصندل، ارتديت ثوب عرسي الأحمر، وأسدلت خصلات من شعري، ووضعت بعض المساحيق لتخفي ذبول وجهي آنذاك، انتظرت، وانتظرت حتى الصباح التالي. حتى صباحات لا يمكن حصرها حتى... وبالنهاية أصابني اليأس. أصبحت أحيا على الكفاف، حتى أصابتني حالة من الإعياء نقلت على إثرها إلى المشفى المجاور، وهناك

أخبروني بأمر اشتد عليه تصنيفه آنذاك أهو سيء أم جيد، أهو موت أم حياة، لا أنسى تلك الابتسامة التي كست وجه الطبيبة حين قالت: "مبارك، أنتِ الآن تضمين بين أحشائك روح جديدة." ثم انفجرتْ في البكاء ثانية لكنها في تلك المرة لم تخفِ عبراتها أو توقفها، لقد شعرت أن في ذرفها ما ينفس عما بداخلها من الألم، بكت وأجهشت عاليًا ثم أردفت: "خرجت أجر أذيال البؤس من تلك المشفى، بدا الكون كله مغطىً بالظلام الدامس، أذكر أنني اصطدمت ببعض المارة في ذلك اليوم، كدت أُسحق تحت القطار أثناء عبوري أسفل النفق، عدت للمنزل لأجد والدكما ممد على الأريكة بيده زجاجة تفوح منها رائحة غاية في البشاعة، لقد أدمن شرب الكحول، ظنًا منه أنه سينسى بتلك الطريقة. نظفت الفوضى التي جلبها معه للمكان، حضرت بعضًا من عصير الليمون الطازج، وضعته أمامه وانصرفت من فوري، حتى لحق بي قائلًا: اللعنة عليك أيكو، هل تعمدين إلى إيقاظي، ثم ضرب على صدره متبعًا: إن ها هنا من السُّكْر والانتشاء ما يكفي عالمًا بأكمله، حتى أن هذه الخمر لا تنهض على مقاومته، ثم غادر المنزل مترنحًا. فاتبعته خشية أن يلحق الأذى بنفسه أو بأحد، وضعني في مواقف محرجة للغاية، لم يكتف بذلك تطور الأمر إلى ضربي، ولطمي، وتكسير المنزل، لم أخبره بالخبر السار الذي ينتظره كل أب بشغف، لكن إيذاءه المتكرر دفعني بالنهاية إلى إخباره، رغم ثقل الأمر على كاهلي إلا أنني كنت ألتمس سببًا أخيرًا للنجاح في مهمة حياتي الأزلية مع والدكم، وعلى خلاف ما كنت أعتقد، كان الخبر بمثابة الصاعقة التي أعادت إليه توازنه، وأيقظته من غفلته، ذهب وأعد لنفسه شراب الليمون، غسل أسنانه، وبدل

ثيابه التي تقطر منها رائحة الخمر، أقبل باتجاهي، نظر إلي نظرة قد نسيتها وظننت أني لا أراها ولا أؤمل في ذلك ثانية، جثا على ركبتيه أمام الأريكة التي كنت أجلس عليها، ثم انفجر في البكاء، اعتذر منى بكل الكلمات التي أتاحه له قاموس اللغة، وعدني بكل ما هو غالٍ ونفيس أن يصلح ذاته، ونعود كما كنا سابقًا، توسل إلى بالمضغة التي لم تخلق، كما استجداني بحقها في الحياة. سامحته على الفور، أخرجت مظروفًا من الشركة يفيد بأنه قد يفقد وظيفته إن لم يذهب بأسرع وقت، نظر إلى حطام المنزل من حوله، وصرخ عاليًا: ماذا صنعت، ما الذي فعلته أيها الأحمق؟ لقد شغلتك حياة الغير عن حياتك، كنت تسعى لإسعادهم، وتقوض بناء سعادتك، ثم جثا ثانية ممسكًا بيدي: أقسم أني سأصلح الأمر، سنتجاوز الأمر، أعدك. بعدها حقق نجاحًا كبيرًا في العمل، حصل على ترقية إثر تقديمه دراسة جدوى لمشروع حققت من خلاله الشركة أرباحًا طائلة. لم يقاوم النجاح، أصر على التقدم الذي كان يقصى ما بيننا مع مرور الوقت، أسس شركته الخاصة، بدأت تزدهر شيئًا فشيئًا، حتى أضحى على النحو الذي تعرفونه الآن، وأصبحت تلك اللحظات والموعود السالفة هي الذكرى التي أحيا عليها للآن، كما أنه أصبح يكن ضغينة وحقدًا تجاه المسلمين أعجز عن وصفه، غير مدرك أنه هو من أخطأ بحق نفسه وحقهم بالطبع، لقد سوَّل له شيطانه، أنه كان محقًا في طمعه ما ليس ملكًا له. طويت تلك الصفحات القاسية، وخرج من بينها سطور كونت أسوأ ما في شخصية والدكم، ثم أردفت بصوت مختنق: لكني لا زلت أؤمن بأعماقي أن هذا الحب لن يذهب سدى..

ساد الصمت لبرهات قبل أن تضيف بأنفاس مكلومة: "لا بد أن يلوح النور في طريق هذا الحب، سأظل أحتفظ بهذا الأمل بداخلي حتى تنقطع أنفاسي." ثم هبت مغادرة الجلسة وهي لا تستطيع التحكم بدموعها المنهمرة..

سارع كين بالتوجه إلى معمله، عله يتناسى ما قد سمع، لكن هيهات الأمر، لقد فكت أيكو للتو الشفرة التي عجز عن ترجمتها طوال سنين مضت، وكيف أنها كانت تبرر وتعلل عن زوجها باستمرار. لقد أعطتهم ما أرادوا حين شعروا به، حين استبد الحب بقلب صغيريها، هنا فقط لم تعد بحاجة إلى تبرير تسلط والدهما، وتعليل صمتها ورضائها، إنه باختصار شديد، غزو لقلبها وقلب من تحب لم يستطيعا النجاة منه بعد. جلس على معقده بجانب الطاولة التي صف عليها عيناته، نظر إلى أزهار الخزامى الزرقاء، هل يستطيع أن يضفي عليها بعض من جينات الياسمين، لتصبح خزامى بعبق الياسمين؟ فتجمع بين جمالين: المظهر، الجوهر، رقة وجاذبية الخزامى، وعبق وشذى الياسمين، لكن عندها ستزول مزية الياسمين، سيصبح صورة بلا روح أو ألوان، وينخلع على الخزامي من السمات، ما يقلل من جاذبيتها الأولى، ورغم أن الأمر قد يبدو رائعًا إلى كين القديم، إلا أنه يقدر كلًا الجمالين على حدة. وأن الكمال الذي يسعى إليه البعض قد يفسد أكثر ما يصلح، لكنه سعى إلى تحقيق تجربته على أي حال، فربما هناك من ستثير إعجابه. قضى كين ذلك اليوم بين تسجيل بعض النتائج، وتفقد العينات، حتى أنهى عمله مع شمس الأصيل بأشعتها الدافئة التي ألهبت جذوة الحب بداخله، تذكر الغروب أعلى الجسر، الفتاة، بكاؤها،

حياؤها، ذكرياتها التي تتابعت بعد ذلك، حتى انتهى إلى ساعة رحيلها فأصابه الضجر، لكنه كان يُسلي نفسه باقتراب اللقاء وتتابع الأيام حتى العام القمري الجديد.

وفي الشرفة الأخرى، تسير الفتاة وسط زحام الأفكار، وضجيج الذكريات، استبدَّ الحنين بعالمها حتى لم تعد تشعر بما يحدث من حولها، تراه في أزهار الرياحين، في جمال الأقحوان، في أريج الجوري، ترفع ناظريها نحو السماء، فتراه شمسًا في غروبها، وقمرًا في بزوغه، تراه نجمًا يهدي السائرين، غيمة تهطل الفرح على قلب من يجاورها، تراه في أنسام الربيع العابرة، كلما حاولت التخلص من قيد حبه، أحكم إغلاقه على قلبها، كانت تفر منه لتسير نحوه، تغادره لتلقاه، تتركه لتيمم شطره. نظرت بهدوء إلى السماء المقمرة، ارتشفت رشفة من شاي الزنجبيل الدافيء، أغمضت عينيها، ورحلت عن الواقع، وقبل أن تكتمل تلك الابتسامة على وجهها، انتبهت على صراخ يوري المتتابع: "هل أنتِ بالداخل، لقد نسيت مفتاحي بالمنزل، افتحي لي الباب.." مع طرق يكاد بهوي بالبناية بأكملها، أسرعت الفتاة وفتحت لها الباب، دلفت يوري بسرعة الرياح للداخل وقالت بحماسة زائدة: "كل هذا لتفتحي، ترى ماذا كنتِ تفعلين، لدي الكثير لأخبركِ به بعد العشاء.."

بعد العشاء تجاذبت الفتاتان أطراف الحديث، كان معظمها يقع في تحت باب ماذا أكلت وما فعلت، هل أنهيت دروسك وغير ذلك من الروتينيات اليومية، حتى أرسلت يوري سهمًا صائبًا اخترق صدر الفتاة في الوهلة الأولى، ارتعدت الفتاة وانتفضت من مكانها، لتقول بصوت متذبذب: أنا

لا أعرف شيئًا عن الحب، حتى أحدثك عنه، فأين أنا وأين الحب! أنا لا أدري عن أي شيء تتحدثين. اقتربت يوري واضعة يدها على كتف الفتاة هامسة في أذنها: حقًا، وماذا عن ذلك الشبح؟

_شبح، أي شبح؟ ثم أزاحت أجمة من الصبار قد علقت بحلقها مردفة: هذه ذكرى عابرة، ولا أريد الحديث عنها.

_ما تصفينه بالعابر يصبح حاضرًا إذا أرعيناه بعض تفكيرنا، وأرى أنكِ غارقة فيه تمامًا. ثم أشاحت برأسها نحو كتفها الأيسر رافعة كتفيها قليلًا، وهي ترسم ابتسامة غاية في اللؤم. بادلتها الفتاة بنظرة فاترة غير مبالية ثم أضافت: لقد سبق أن أخبرتك أن الحب أكبر مما تصفين الآن، ولا يطرق بابكِ فجأة، ولا يحدث في أول لقاء، مجرد عن الصور، مقترن بالذوات، يحكمه الأخلاق والمباديء، تقوده الشدائد، يسقى بماء الصبر، وأجمل ما فيه كتمانه، وأعذبه في العفاف، وكل حب ينتهي عند عتبة الحب الأعظم، وقبل أن تفكر يوري في ماهية الحب الأعظم، أردفت الفتاة: الحب الأعظم، هو حب خالقكِ، الذي خلقكِ فسواكِ فعدلكِ، أحسن صورتكِ، منحكِ السمع والبصر، والفهم والإدراك، منحكِ الحس والعقل، والقلب، القلب الذي يحوي مشاعركِ وإحساسكِ، خالقكِ الذي منحكِ من تحبيين، وجعل بينكما من أوصال اللقاء ما قد تعجزين عن تصوره، ألا تري في كل هذه النعم ما هو جدير بحب حقيقي، حب فطري، حب يملك أقطاركِ وأفكاركِ، يكفيكِ أن هذا الحب كلما ازددت منه، زادكِ راحة وسكينة، يضخ بداخلك الطمأنينة والهدوء، الحب الذي لا يتخلى عنك أبدًا، لا يتركك مهما تعاظمت أخطاءكِ وجلتِ، مهما ابتعدت واضطربت

طرقاتك، مهما قصَّرتِ وأذنبتِ، ستجدين ربكِ أقرب إليكِ من أنفاسكِ، من نفسكِ التي بين أضلعكِ، أقرب إليكِ مما تتصورين، أقرب إليكِ من حبل الوريد، ران الصمت لبرهة، استجمعت الفتاة نفسها وأضافت: كل حب غير حب الله فانٍ، مهلكٌ، مردي، حتى في أعذب محطاته، ولا يبقى غير الله -سبحانه- حين يرحل الجميع، أما هذا الحب البائد فيكفي فيه قوله سبحانه وتلت الآيات التي طالما اعتقدتها دستورًا لها بالحياة...

درات يوري عدة مرات حول معقد الفتاة، صفقت بصوت مدوي وأضافت بنبرة ساخرة: أنا لا أعرف كل هذه الفلسفات والتعقيدات، حتى أنني لست مسلمة حتى، ولا أفهم كل هذه الترهات، المهم أن الحب يجعلك سعيدة، مجرد رؤية من تحبين، يمنحك شعور الطير في جو السماء. ثم ترنحت راقصة في الأرجاء، تردد أنغام إذا كان للحب جنون فأنا أول مجنونة بالعالم، مغادرة المكان.

انقبض داخل الفتاة، ضاق صدرها كثيرًا، شعرت بمن يستل منها أنفاسها، هرولت مسرعة ترتل بعض الآيات، تتغنى بصوت حزين باكٍ، طالما كانت تلك الآيات تسري عن نفسها، تمنحها شعورًا بالأمل، تهبها وعدًا بالنجاة، الآيات التي اجتمع فيها الفقد، الألم، الغربة، الافتراء، الوحدة، لكنها تهدي بالنهاية إلى جميل الأقدار، رحلة مكللة بالتوفيق والنجاح، كان قرينها الأول اليقين بالله، صدق التوكل عليه، حسن تفويض الأمر إليه، ثم الصبر، الذي رغم مرارته، إلا أن عواقبه أحلى من العسل. وبانتهاء التلاوة يأتي الانفراج، يأتي جميلًا في كل مرة، فلا ينقصه تكراره حلاوة، ولا يبخسه عذوبة. يأتي كغيث يهمي على صحراء تصدعت، فتغدو دوحة غناء،

يغسل أوجاعها كأمطار غابة موسمية على أوراق أشجارها، هو الأمن والأمان، والملجأ الآمن، كل آية من هذه السورة مفتاح لحلول عدة، ملاذ للخائفين، لطالما كانت شفاءً لها، ولكل كل من وردها.

رفلت الفتاة في ثوبها الفضفاض، توجهت نحو الشرفة تراقب أجرام السماء، ضمت كفيها إلى جوار قلبها ورددت: اللهم اربط على قلبي، يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على الحق، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، ثم سارت بقين باتجاه سريرها، تحلم بأن يجلي الله عنها ما تعاني..

لم تكن المعاناة في الحب قدر الفتاة وحدها، بل هو قسمة كل المحبين، ولا يستعذب من الآلام شيئًا إلا ألم الحب؛ فميكاتو قد أمضى ليلته مستقيظًا حتى الصباح، افترش رصيف الجادة التي تقبع بها ناطحة ران، أمضى ليلته كطفل صغير أفلت يد والدته بالزحام، تضطرب جوانحه كنبتة صغيرة في مواجهة إعصار هائل. رابط عند ذلك المخرج، رغم قدرته على مهاتفة ران، لكنه ولفرط حبه كان يخشى أن يكون ذلك من باب الضغط ومحاولة استجداء مشاعرها، وفور نزولها، تصنع مروره مصادفة، وأنه يذهب للتمشية قليلًا في الصباح الباكر، حاول دعوتها لاحتساء كوب من الشاي، لكنها اعتذرت متعللة بالتأخير على موعد هام، واعدة إياه بلقاء في آخر الشهر الجاري، ثم طوت الأرض مختفية عن الأنظار. تأججت نفس ميكاتو غضبا، تسرب إلى نفسه شعور الخوف والوهن، فلا بد وأنه موعد انتهاء تلك الحكايا، وبداية فصل حزنه واكتئابه الأبدي؛ يبدو أن الفتاة سترحل ثانية، لكنها في هذه المرة، ستترك من ورائها ضحية قد استحالت

نجاتها أو عودتها للحياة من جديد. عاد أدراجه للمنزل، يجر أذيال الخيبة والحسرة والألم، يحاول تضميد جراح روحه التي بدأت نهايتها توًا، يضم أجزاء نفسه التي شطرها الحب في كل اتجاه، تحامل على نفسه، وسمح لبعض عضلات وجهه المنقبضة بقليل من الانبساط، لتنم عن نصف ابتسامة باهتة، سلم شاردًا على الحضور، ثم دلف إلى غرفته، وكفهفه الصغير الذي ضم أسراره وأحزانه على الدوام..

وما بين عشية وضحاها استطاعت يوري تصنع الحب، وأصبحت تسم ذاتها بأنها حبيبة فلان، وهي لا تجرؤ أن تجاذبه أطراف الحديث، تكتفي بابتسامة وإيماءة رسمية تحييه بها كل صباح، وربما تصنعت مرورها بجانب مكتبه عدة مرات، لكن كل هذا لا ينهض أن يكون حبًا ولا معشار حب..

تعجلت يوري أمرها، وألقت بزورقها في خضم بحر الحب الهائج، ليس ذلك فحسب؛ بل في وسط عاصفة هوجاء، لم تستمع نصح الفتاة المتتالي لها دومًا، كانت تتأفف معلنة حبها بكل وقاحة بشعة، وطريقة مخزية، لكن الفتاة لم تيأس يومًا من روح الله، ظلت تجاهد وتناضل، جعلت منها معركتها التي لن تستلم بها أبدًا، رفعت شعار (معذرة إلى ربكم) وغالبًا ما كانت تختم حديثها بقولها (اللهم فاشهد)، تقابله يوري بضحكة خبيثة..

تتابع سطوع الشمس لعدة صباحات، كان كل يوم يخرج بأحد أنفاس ميكاتو، حتى أشار التقويم إلى اليوم الأخير في ذلك الشهر، اليوم الذي طال انتظاره، وحال دونه الصبر، جلس ميكاتو يراقب الدقائق، ويتعجل

الساعات، حتى حل المساء، ارتدى أفضل ما لديه، اصطحب باقة من الزهور تليق بحدث الوداع، مزج فيها بين الجوري الأحمر والأبيض، ذهب إلى المكان الذي وسمته ران، وما إن وصل إلى هناك، تسمرت قدماه بالأرض، وتجمدت أجزاؤه، ألقى نظرة بائسة على تلك الفتاة التي ترتدي حاجبًا بلون الكراميل، سحب بعض الأنفاس الهاربة، ثم ألقى تلك الباقة الحزينة لأنها لن تُهدى، والتفت مغادرًا المكان دون أن يلتفت ولا لمرة واحدة، يعتصره ألم الفقد الذي يمزق قلبه، يردد بداخله: هل لا أمثل أدنى شيء بالنسبة لك حتى استكثرت الوداع بحقي، هل أرسلت إلى الفتاة لتعتذر نيابة عنك، ليتك أرسلت رسالة، أو ألصقت ملاحظة بباب منزلك، حتى أرى حروفك، وأستنشق أنفاس عطرك، لقد كتب بقدري الفراق، وأرى أنه يليق بي كثيرًا، ومن سيرغب في ذهاب عمره مع مخترع مهوس بالتكنولوجيا واختراع الآلات، لقد برعت بتصميم كل شيء، لكن فشلي الوحيد كان في تصميم قلبي، الذي فقدته وللأبد...

مسحت الفتاة التي كانت تراقب ما يحدث عن كثب عبراتها، جمعت الزهور المتناثرة، وأعادت تنميقها، ثم ضمتها لصدرها قائلة: إن كتب في أقدرانا اللقاء، فحتمًا سنعود، ثم طوت صفحة الماضي، وسارت نحو نجدها الجديد الذي ارتضته عن طيب خاطر..

نسج الحزن خيوطه على سقف تلك الغرفة الصغيرة، تتابع مرور الأيام في صمت قاتل على قلب ميكاتو الواهن، أمضى نحو شهر ونصف في الرسم، والعزف على الكمان الحزين، ومراقبة الشروق والغروب، تخللت محاولات منه الاتصال بران في هذه المدة، إلا أنه كان يكبحها في كل مرة.

لاح في أفقه أن هذا هو قدره المحتوم، لكنه كان ما قدره لنفسه بتعجله، واستجلابه الحزن قبل حضوره، وعدم تبينه الأمور، والوصول إلى حقائقها.

ولا يختلف ميكاتو فيما صنع عن الكثير من الخلق، لأن الإنسان قد طبع على العجل، وانتظار النتائج قبل مباشرة أسبابها، وهذا ما كان يعكسه طيش يوري التي أشغفت برجل لا تعرف عنه ما يزيد عن محيط مكتبه، تردت علاقتها بالفتاة، حتى أصبحت صداقتهما على المحك، آثرت الفتاة الصمت، لجأت إلى سلاحها السري الصائب، تضرعت ودعت كثيرًا أن يهدي الله قلبها، وأن يلهمها أسباب الرشد. أصبحت اللقاءات التي ضمتهما محدودة؛ فالفتاة انشغلت بدراستها، ويوري كانت هائمة لا تدري أي اتجاه تسلك، أكلها جوى العشق الزائف، وأنهكها متابعة السراب..

تتابعت الأيام، وحلت أمطار يوليو الهادئة، زخات متتابعة تهطل بهدوء، تعانق الثرى كعبرات الوجنات الدافئة، العبرات التي أرسلها الحنين، وبعثها الشوق، وغشاها أمل اللقاء، العبرات التي نعجز عن كتمانها، يؤلمنا تحيرها كثيرًا، نجاهد لندفعها، ونوقف تيار تدفقها، إلا أنها تباغتنا بالنهاية، ليس لأسباب حقيقية ولكن ربما لشيء لا يذكر حتى، لكنها متى سألت؛ تمضي ومعها مشاعر مكبلة، قد استطاعت أن تظهر للوجود وتعبر عن ذاتها، تلك هي عبرات الفتاة التي وقفت تستند على سور الشرفة، تراقب عبرات السماء تعانق أوراق أزهارها، فتجلوها وتزيل غبارها، كما تزيح عبارتها آلام الشوق. اشتاقت حتى لم تعد تميز من تشتاق، وأي شيء تشتاق، اشتاقت رفيقتها يوري التي ضلت السير في أروقة العشق البائس،

تشتاق ران التي تسلي عنها أحزانها، تشتاق جدتها وفيض حنانها، تشتاق وبشدة ذاتها، نفسها التي أضاعتها في مفترق الطرق، حنينها إلى الماضي، إلى الذكرى التي قطعت عهدًا بتناسيها، لكنها تغافلها بين حين وآخر لتطرق باب وجدانها، وبالرغم من ضوضاء المشاعر التي كانت تعانيه الفتاة إلا أنها لم تنسَ أبدًا تلك الدعوات التي يلهج بها لسانها في كل وقت، ويرددها قبلها في كي حين، رفعت كفيها تعانق حبات المطر، أنّت بنداء مكلوم (اللهم اربط على قلبي، اللهم اشدد عليه، اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، اللهم لا تعلق قلبي بغير حبك، اللهم إني قد التجأت إليك واعتصمت بك، وأنت حسبي ونعم الوكيل)

وعلى مئات الكيلو مترات يجلس كين في مختبره يراقب أزهار التوليب ببهجة ألوانها الزاهية، محاولًا دمج عدة خصائص نباتة جديدة ستسهم في تحسين النبات، تقفد أزهار النرجس الصفراء المحاطة بهالة بيضاء تشع غاية في الحسن والجمال، لم يكن الشاب العشريني في الماضي أية مشاعر تجاه نباتاته، كانت مجرد عينات بحثية يسعى في تطويرها، وتقديم أفضل النتائج للشركات المنافسة في مؤتمر "فلورست" السنوي، لكنه الآن بدأ يناجيها ويحدثها حتى أنها كانت مستودعًا لأسراره في كثير من الأوقات، وملاذه الآمن الذي يهب نحوه عندما تكابده أشواقه. يجد فيها ذاته المبعثرة من آلام الحب، تشبه برقتها قلبه الذي تبدل بالكامل، ومشاعره التي تطورت، فأصبح لي كين الهاديء المفعم بالحياة والأمل، لم تعد الجوائز والألقاب شغله الشاغل، بل ينظر إلى الأزهار والنباتات على أنها أرواح جميلة، قد خلقها الله لتسر الناظرين، وهو يسعى بدوره للمحافظة عليها.

قام بتسجيل بعض النتائج، ثم قرر الخروج للسير تحت المطر، نظرت إليه أيكو بدهشة، رفعت حاجبيها متعجبة: "كين! المطر! حقًا الحب يصنع المعجزات، لقد تغير هذا الشاب كثيرًا حتى أصبحت لا أعرفه. مراقبة الغروب، مناجاة الأزهار، السير تحت المطر، لقد كان يعد كل هذه الأشياء عبثًا وإضاعة للوقت." كلمات رددتها أثناء ترتيبها لصالة المنزل غير مدركة لمن بجانبها، فنهرها زوجها بقسوة: "بماذا تهذين يا امرأة؟"

أشاحت أيكو بوجهها أرضًا مجيبة: "لا شيء.." فما كان منه إلا أن صاح بوجهها: "إذًا أعدِّي لي كوبًا من الكاكاو الساخن، واتركي هذا الجنون، لقد أسأتُ إلى نفسي في اليوم الذي اقترنت بك." هرولت أيكو إلى المطبخ لتلبية طلبه وإخفاء همس بكائها ودمعها الملتهب من حرارة الأسى، ترى هل يذهب كل حبي لك في مهب الريح، أكنت سرابًا قد طلعت عليه شمس سرمدية؟ أم أنك ليل لا يعقبه نهار! لقد طالت غربتك، وزادت قسوتك كثيرًا، ثم وضعت يديها على قلبها وضغطت بشدة، تحاول أن تكتم صراخه، وتوقف نزفه، وتجتث تلك الغصة التي لم يعد لها ملاذ غير صدرها العاني. مسحت دموعها مسرعة، قدمت له طلبه السالف، ثم عرجت على غرفة ميكاتو التي غدت سجنًا له منذ أشهر، لا يبارحها إلا كشبح في الظلام الدامس، طرقت الباب، فوجدته على نفسه حاله، جالسًا على سريره منزويًا على نفسه، مخبئًا رأسه ما بين يديه كأنه يرفض رؤية العالم بأسره. وماذا قد يفيد عالم مجرد عمن نحب! رعته لبعض الوقت بناظريها، ثم ضمته إلى صدرها وهو لا يزال على حاله، مررت يديها بين خصلاته السوداء، مسحت على رأسه برفق وحنان، ولا شيء يشفي من

أوجاع الدنيا كحنان الأمهات، وإن كانت أوجاع الحب تأخذ الكثير لتشفى، جلست أيكو تؤزر صغيرها الذي يبدو جرحه غني عن السؤال؛ فهي أعرف من في هذا المنزل بمعاناة الفقد وآلامه.

كلما توالت الأيام، كلما ازدادت العلاقة بين يوري والفتاة سوءًا، حتى أصبحت على شفا جرف هار، وانهارت بالنهاية. تقطعت أوشاج الصداقة التي دامت لعقدين مضيا، في طرفة عين، تركت يوري الإقامة لدى الفتاة، رفضت الإجابة على اتصالها مرارًا، لكن روحها بما أشربت من جميل الأمل كانت ترفض الاستسلام، الأمر الذي دفعها أن ترابط كل مساء بجوار النافذة المطلة على طريق العودة، تنتظر أن تعود يوري من جديد، تحضر العشاء في كل ليلة وتعد طبقها المفضل، تنتظر عودتها لتمطرها بوابل من الثرثرة عن بطولاتها في مجال المبيعات، ومتابعة أسهم البورصة. تشتاق لضحكاتها المرتفعة التي كانت تزعجها فيما مضى وتعدها تقلل من حياء الفتاة، لكنها لم تعد حتى الآن. مر شهران، وأقبلت ليالي الخريف، بدأ اليأس يتسرب إلى نفس الفتاة، بدلت الأشجار وشاحها الأخضر مصفرًا، بدأت الرياح تعصف ببقية الأوراق العالقة بأغصانها، تخبرها أن كل شيء إلى زوال، وما عرف جمال الربيع الوارف إلا بعد الخريف العاصف! وهكذا هي الحياة، بعض الفصول المتغيرة، والأحداث المتضاربة، فلا حزن يدوم ولا فرح يستقر وإنما هي مد وجزر في خضم الاختبار المتناهي للقيا الجزاء غير المتناهي. وبينما هي على تلك الحال يعتصرها الفقد وترديها الوحدة، إذ لاح في الأفق طيف لفتاة اكتست بحلة العفاف، أقبلت ترفل في وقار بردائها الزيتي نحو منزل الفتاة، التي لم تتمالك قلبها الذي

انتفض فرحًا، أسرعت نحو باب المنزل هاتفة بأعلى صوتها: يوري، كنت أعلم أنك ستأتين، هيا أسرعي لقد انتظرتك طويلًا.. وقبلها يهتف مع وقع قدم الفتاة الأخرى على الدرج، كان أطول انتظار في حياة الفتاة، الانتظار الذي امتد لشهرين متتابعين دون وهن أو مهادنة، الانتصار بالمعركة التي بذلت فيها الفتاة كل ما لديها من دماء روحها المخلصة وقلبها الطاهر، وما إن تبدى القمر المنتظر آنفًا، حتى حبست الأنفاس، وران الصمت على المكان لهنيهة، تصلبت كل الجوارح، تجمد الزمن لوهلة، لم يثبت فيها إلا دموع تسيل على وجنتي الفتاتين، انعقد لسان كل منهما للحظات، حتى ألقت ران بنفسها في حضن الفتاة، التي ضمتها فأدخلتها إلى أعماق قلبها، كانت المرة الأولى الي تشعر كل منهما بحنان أمها البائد، أشارت الفتاة إلى ران بالدخول وحملت عنها الحقيبة التي أحضرت معها، لم تتلفظ أي منهما بكلمة إلا أن الفتاة توضأت وأسرعت نحو قبلتها وذرفت سيلًا من عبرات الفرح، فحتى وإن لم تكن يوري من أسلمت؛ فإسلام ران لا يقل سعادة بالنسبة إليها. بعد قليل جاءت ران وجلست بجوارها، فابتدرتها بالسؤال عمن كانت تنتظر، فأجابت بنبرة يائسة دون أن تنظر إليها: يوري.

_ يوري!، أليست هنا؟

_ تنهدت الفتاة قبل أن تجيب: لا، لقد رحلت منذ فترة طويلة، انتظر عودتها في كل يوم، ولكنها لا تأتي.

_ اندهشت ران لما حدثت به الفتاة فأضافت: ولكن لمَ؟

ـ إن الأمر يطول شرحه ولكن يمكنك أن تقولي أنها تعجلت ما لم تتبين كنهه، كما أنها تولت كبرها قليلًا، لقد وقعت بيننا مناوشات كثيرة إثر حديثنا عن حبها البائس.

أشاحت ران بنظرها بعيدًا، ورددت بغير وعي: ليس هناك ما هو أعظم مصيبة على بني الإنسان من العجلة واستباق الزمن، إنه يؤرق صاحبه، يقض عليه مضجعه، ويسلبه فرحة حاضره، لكنها فطرة امتزجت بنفوس الكثير.

ـ أنت على حق، وربما تعلقي الزائد وتعجلي إسلام يوري هو ما أحزنني في الفترة الماضية، وسلبني الكثير من الوقت.

ربتت ران بهدوء على صدر الفتاة باسمة: هوني عليكِ، إن يشأ الله يأت بها وبغيرها، لقد بذلت ما تملكين.

كانت تلك الكلمات بمثابة البلسم الذي لامس جراح الفتاة، فبدد أنجستها التالفة وأعاد لها رونقها، كما أن إسلامها جلب فرحًا وسعادة أنستها كل ما عانته من شقاء وحزن في عمره الماضي، فهبت من فورها تتضحك: دعك من هذا الآن، كيف انتهى بك المطاف على هذا الحال؟

ـ أخذت ران شهيقًا طويلًا زفرته بهدوء قائلة بابتسامة متلألئة: في الحقيقة لقد فكرت كثيرًا في الأمر أثناء إقامتك بشنجهاي، لكن الوقت لم يسعفنا، كما أن ذاك الحادث اجتزأ الكثير من وقتك آنذاك، لكنني افتقدت الكثير من الصفاء والسلام الروحي الذي وجدته بصحبتك، فرُحْتُ أبحث هنا وهناك حتى هداني الله إلى هنا بالنهاية، اليوم عندما أنظر لنفسي بالمرآة، لا أرى

شحوبًا أو أدقق في ظهور تجاعيد جديدة، أصبحت أرى راحة وطمأنينة تعلو كل ملامحي، حتى أنها تغلغلت بداخلي لتشفي ندوب قلبي، وما كنت أكثر سعادة مما أنا عليه الآن، ولم أذق مثل هذه الراحة من قبل، أضحت كل نجاحاتي وإنجازتي لا تساوي معشار ذرة مقابل ما فعلت. ثم نظرت بعيني الفتاة مباشرة بامتنان بالغ:

-لقد أهديتني ذاتي يا فتاة، لقد أعدتي إليّ نفسي الهائمة بين أروقة الظلام، لقد غسلت أوجاعي، ومحوت آلامي، منحتني حياة ونجاة وأملا، أصبحت أرى العالم بعين أخرى، لقد مارست كل طقوس اليوجا بأماكن لن تخطر ببالك حتى، لكنها لا تنهض أبدًا أن تساوي ركعتين في جوف ليل ساكن. أنا اليوم أحدثك وقد طويت صفحة ران التي مضت وانقضت، اليوم أنا (ساجدة)، أسأل الله أن يجعل لي نصيبًا من هذا الاسم..

ثم تركت يدها، وعانقتها مطولًا. أجشهت كل من الفتاتين في نوبة بكاء، ولا زالت ران أعني ساجدة تردد: لا يمكنني أن أوفي شكرك، (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا)

وهكذا بدأت الفتاة تجني أولى ثمار صبرها، الذي تجرعت مرارته طوال عام قمري كامل، انتظرت حتى مل الانتظار منها، كان يحرق على غصته أنفاسها يوما بعد يوم، ويكوي قلبها الضعيف بلظى نيرانه، لكن على قدر العنا تنال المنى، فكانت عواقب الصبر أحلى من العسل. لم تكن ساجدة فقط التي ترى أن الفتاة وهبتها الحياة من جديد؛ فمع تصاعد موجات الحب بقلب كين يوميًا وإحساسه ببريق الأمل استطاع أن يقدم بحثًا غير

مسبوق النظير عن زهرة عطر الملوك (الأوركيد) التي لعبت دورًا هامًا في التاريخ الصيني، واختصت بمكانة كبيرة لديهم، فاستطاع أن يجلي الكثير عن كنهه هذه الزهرة، ويقدم دراسة تفصيلية تكشف الكثير عن أنواعها وإمكانية دمج بعض الخصائص التي تسهم في تطويرها وتعزيز نموها إلى حد كبير، كما أدت أبحاثه الجينية إلى دمج بعض الجينات التي تقلل من نسبة السم بنبات (الفاونيا) مما يتيح استخدامه على نطاق واسع في مجالات صنع الأدوية والعقاقير الطبية، وتلقى على إثر هذا الكثير من العروض للشركات المهتمة بتطوير النباتات العشبية، وشركات الأدوية، مما جعله يحظى بقدر كبير من الرضا عن ذاته، وسعيه للتطوير المستمر.

اعتقد الشاب أن كل ما لاح في أفقه من نجاحات كان دافعه الحب، والحياة الجديدة التي وهبته إياها الفتاة بحبه لها، لقد استوطنت الفتاة قلبه، وملكت أقطاره، وجاوزت شغافه، حتى امتزجت بالأعماق، فأصبحت كل ما تقع عليه عينه، شمس أحلامه، سكون ليله، هدوء أمواجه في الليالي المقمرة، سماء طموحه، قمة قلبه التي لم ولن يصل إليها أحد غيرها، لقد خالطت خياله، وقبعت بعقله، حتى أنه يشعر بها بأنفاسه، حبها الأكسجين الذي يضخ بداخله الحياة، وبسمتها النبض الذي يسري بقلبه، خالطت منه كل همس ونبض، حتى أضحت تنبض بشرايينه، ولا يرى نفسه دونها أبدًا، كأنه يردد بداخله:

ويا حُبَّها زِدْني جوىً كل ليلةٍ ** ويا سلوةَ الأيامِ موعدكِ الحَشْرُ

الأيام التي ثقل عليه تتابعها؛ فكان كل يوم هو عام قمري بأكمله، كل شروق وغروب للشمس هو عمر بالنسبة إليه، العمر الذي يدنيه من الوصال، وشوقه إلى اللقاء الذي يحيه من رماد العدم.

وأخيرا بدأ قمر (لايويه) يغادر شيئًا فشيئًا، يزحف بحطى حثيثة، ليودع الصينيون عام الخنزير، لاستقبال عام الفأر، الذي انتظره كين بشغف بالغ وأعد له كثيرًا، حتى إذا بدأ يناير يجاوز المحطة الثالثة من هذا العام، حزم كين أمتعته، وجلس يترقب بزوغ الصباح، فالرحلة هذه المرة ليست كسابقتها مطلقًا، إنها الرحلة التي ينوي خلالها إعلان حبه للوجود، مشى بطول غرفته الصغيرة ذهابًا وإيابًا يستجدي مرور الوقت عدة مرات، ثم جلس على مكتبه ينوي كتابة بطاقة معايدة للفتاة، اعتقد في أول الأمر أنه يتجاوز حدود اللباقة في هذا، لكنه فعله على أية حال. في الصباح التالي، أعدت أيكو هدايا العيد، وجلبت بعض القناديل الحمراء الموشاة بالذهبي اللامع، ألصقت أبياتًا شعرية بباب منزلها، خطتها على رقعة حريرة حمراء، ألقت نظرة فاحصة على جميع ترتيباتها قائلة: "كل شيء جاهز.." وذهبت لإيقاظ لي كين المنشود بالقيام بـ(تشون يون) ، وما إن طرقت الباب حتى كست الدهشة جل وجهها، لقد بدا الفتى مستيقظًا منذ فترة، وهو على أتم الاستعداد للسفر، عانقت أيكو ولدها بحب ليقول كل منهما: "عيد سعيد."

ضحك كل منهما بصوت عالٍ، شعرت أيكو بسعادة غامرة، كانت افتقدتها طويلًا، لكن ثغر لي كين الباسم أعاد إلى العيد بهجته من جديد، لم تنسَ الأم المحبة أن تمطر ولدها بسيل النصائح وتوخي الحذر، وكعادتها طاف

من حوله بالإناء النحاسي الأحمر الذي تصدر عنه رائحة البان لإبعاد الأرواح الشريرة -كما اعتقدت-. كان الفتى حريصًا على إنهاء كل تلك الطقوس بأقصى سرعة، يشعر أن قدماه لا تكاد تحملانه شوقًا، نظرت أيكو بابتسامة هادئة قائلة: "أراك في عجلة من أمرك، هذا ليس لي كين المتذمر في كل عام قمري.." احمر الفتى خجلًا ونظر مبتسمًا للأرض: "لقد تغير الكثير يا أمي.." ثم رفع ناظريه إلى سماء النافذة الزرقاء حتى أن كلمة الكثير لا تنصف الأمر، ابتسمت أيكو وأشارت كسابق عهدها إلى قلبه: "لقد قلت لك من قبل، أن الحب عندما يقع هنا، سيغير عالمك بأكمله.." أومأ الفتى برأسه إيجابًا، واصطحب الحقائب منطلقًا إلى محطة القطار، التي بدت مختلفة وبدا الطريق إليها يشع سحرًا وجمالًا من عبق الحب.

كان كين يطوي الأرض طيًا، يتحرق شغفًا للوصول في أقصر مدة ممكنة، لم يلتفت كثيرًا للتفاصيل طوال الرحلة، لكنه كان يشعر بسعادة غامرة، جعلت كل ما تقع عليه عينه جميلًا بالنسبة إليه، وصل بسرعة العاديات إلى منزل الجد، توجه مباشرة إلى مجلسه المعتاد بجانب شجرة الدراق الكبيرة، فلم يستطع إيجاده، قام بطرق الباب عدة مرات لكنه لم يجب، أخذ القلق يتسلل بداخله، فافترش الممر القابع بين شقي حديقة الجد، يفكر أي يمكن أن يذهب الجد؟ صف الحقائب بجانب المنزل، وقام بدورة في الأرجاء فلم يجد شيئًا، ثم اشتمَّ رائحة بخور، اتبع الشاب الرائحة التي قادته بدورها إلى المكان الذي يحتفظ فيه الجد بألواح أسلافه وحبيبته يوكو بالطبع، جلس الجد في حالة من الهدوء التام، افترش الأرض كالقرفصاء يحمل إناءً مزخرفًا كبيرًا قد ملأه بأعواد الخيزران التي غمست بالعطر حتى

عبقت المكان بأسره، دلف الفتى وجلس بجوار جده الذي كان منغمسًا بترديد صلواته، فلم يحرك ساكنًا، وبعد ساعة تقريبًا من تململ الشاب، وتغير جلسته من حين لآخر، أنهى الجد جلسته ملتفتًا نحوه: "لي كين، منذ متى وأنت هنا يا ولدي؟"

_ منذ فترة طويلة يا جدي، ما هذه الرائحة؟ كدت أختنق.

اتعست ابتسامة الجد لتنحسر عن أسنان كأعمدة صخرية مهدمة: إنه بخور رائع، هل هناك من لا يعرف بخور(ينغشون)؟

_ إنه أنا يا جدي.. قالها مبتسمًا محاولًا مساعدة الجد على النهوض، ومجاوزة تلك الرقعة التي ضاقت نفسه بها كثيرًا.

التفت الجد ينظر بإعجاب نحو حفيده قائلًا: حدثني يا كين عن سر هذه السعادة؟

استنشق الشاب بعضًا من عبق ووهان الزاكي وأردف قائلًا: إنها سعادة الحب يا جدي، أتذكر حديثك لي عنه، وكيف أنه يغير أمر صاحبه، لقد غادرت ووهان أحمل بين أضلعي الكثير من الحب، وعدت اليوم وهو لا يساوي شيئًا بما أنا عليه الآن، لقد تغير كل عالمي، وحياتي، وأصبحت ذاتي القديمة شيئًا من الماضي، لقد اختبرت هذا الحب لعام كامل، فبدا أنه يتضاعف كل يوم.

قبض الجد بقبضته الواهنة على يد حفيده وأضاف بنبرة جادة: سبق أن قلت لك، إننا من نوضع تحت اختبار الحب، ولسنا من نقوم باختباره يا فتى.

نظر كين مذعنًا لما يقوله الجد، فرك جبهته قائلًا على استحياء: جدي، هل التقيت الفتاة مؤخرًا؟

_ الفتاة؟

_ نعم، الفتاة، أعني سوكي.

_ لا، حتى أنها لم تأتِ بصبحة رفقتها هذا العام، وعندما سألت عن حالها أجابوا: بأنها لن تستطيع الحضور، فهي تطوف بالبلاد تبحث عن رفيقة عمرها.

تبدلت معالم السعادة على وجه الشاب حزنًا، لكنه استبشر ثانية متذكرًا اللقاءات التي جمعتهما في السابق. ثم أضاف الجد: لا تحزن يا ولدي، إن من كتب بقدره اللقاء، فلن يعجزه شيء، وكلها مقادير تسير على الخلق.

ابتسم الشاب العشريني ودلف بصحبة جده للداخل. استلقى الشاب يفكر فيما قاله الجد، ويأمل في قريب اللقاء، حتى دفعه إجهاده وسهره البارحة إلى النوم الذي لم يقطعه سوى نداء الجد المتتابع: لي كين، لقد حل تشوسي ، لقد أعددت الجياوتسي ، هيا لا تتأخر كثيرًا؛ حتى نتمكن من متابعة طقوس الليلة. نهض الشاب عن سريره وخرج يدافع النوم، يبدو عليه النعاس، فقال الجد: هيا، استيقظ لي كين؛ فلا أحد ينام عشية العيد.

ثم قال مازحًا: إياك أن تعتقد أني سأعفيك من مهامك الليلة. جلس كين إلى جوار جده على مائدة الطعام التي تزينت بأطباق عديدة كان من أبرزها حساء الدجاج الذي كانت تفضل يوكو وترى أنه يجلب السلام، وكعكات الأرز الحلوة، وطبق العيد الرئيسي وهو الجياوتسي فقد حرص الجد على

إعداد اللفائف المميزة من العجين المحشوة باللحم، تناول الفتى القليل شاردًا في تفكيره، كما شكر الجد على جهده في إعداد الطعام، ثم جلس يستمع إلى القصيدة المهداة إلى روح جدته يوكو في هذا العام، وكانت المرة الأولي التي يستعذب بها الكلمات، ويستمتع لما يلقيه الجد باهتمام وحرص، حتى انقضت الليلة وبالطبع كل طقوسها الخاصة، وأشرقت شمس العيد تزين الأفق بميلاد عام قمري جديد؛ انتظره الجميع بشوق بالغ، وبالأخص كين الذي استيقظ مع أول أشعة أرسلتها الهالة المتوهجة للأرض، فسارع بالنهوض والاستعداد للخروج، وللمرة الأولى يتبادل تحايا العيد مع جده قبل ذهابه إلى قبر يوكو، مخبرًا إياه بذهابه للجسر، فأجابه الجد مقطبًا ما بين حاجبيه: الجسر! في هذا الوقت؟

_ نعم.. مبتسمًا.

_ لك ذلك، ولكن عليك العودة قبل المساء، فلا بد أن نخرج للاحتفال.

_ بالطبع.

ثم يمم كين تجاه الجسر، لا تحمله قدماه شوقًا، وصل إلى هناك في شمس الظهيرة الحارقة، التفت منقبًا بين وجوه المارة عن فتاته، فلم يهتدِ إليها، قطع الجسر عدة مرات ذهابًا وإيابًا، حتى لفت انتباه بعضهم فسأله إن كان قد فقد شيئًا، فاعتذر منه كين وانصرف نحو الموضع الذي صادفها به. ظل مرابطًا هناك حتى تخللت صفحة المياه شمس الأصيل مودعة نحو مخبئها المعتاد، لكنه لم يرحل، خُيِّلَ إليه رؤيتها تركض خلف الفراشة ذات الجناح الأحمر عدة مرات، تبتسم فوق صفحة المياه، ترفل مع شمس الأصيل تمد

كف مودع. بدأ الظلام يغشى النور، وينشر الليل أشرعة الظلام على المكان. تذكر الشاب الوعد الذي قطعه لجده، فعاد أدراجه مسرعًا، وإلا فلن يبرح مكانه حتى تأتي، فلا بد أنها ستأتي، حتى لو كلفه الأمر عمرًا من الانتظار، فما فائدة هذه الأوقات إذا لم تكن بصحبة من نحب!

عاد الفتى يقطر وجهه الوجامة والحزن، نظر إليه الجد كواشي بإشفاق معقبًا: كل لقاء قد ضُبِطَتْ ساعته منذ الأزل، فلا تبتئس يا ولدي. والحب الصادق ليس له إلا ختام واحد، جميل الوصال. هيا بدل ثيابك حتى لا يفوتنا الموعد مع بعض الحماس الذي يخفف من حدة الموقف، ويذهب وطأته.

خرج كين بصحبة جده كطيف هائم، لا يعي أو يدرك شيئًا مما يحدث، غير أن له عينين ثاقبتين يتفحص بهما كل وجه يدنو أو يقترب، وربما قام بمسحة ضوئية للأشخاص البعيدين عنه. رغم ضجيج الموسيقى العالية، وتفاعل الجماهير المدوي، وفرحة العيد التي كانت تعج بالأرجاء، إلا أن كل هذا كان بمثابة موسيقى تصويرية لما يحدث بداخله، ولا تعكس سوى ضجيج نفسه، واضطراب جوانحه، وهياج عقله الذي عناه التفكير، وقلبه الذي مزقه الجوى. إنه باختصار هشيم الحب، نيرانه التي تجعلنا نصطلي بها في كل حين، نظل نجحده وننكره، حتى نقع في شباكه المحكمة، وعندها لا نستطيع الخلاص منه أبدًا، يظل يبتعد لنقترب، يغيب لنحضر، يتركنا لنذهب إليه، حتى إذا اقتربنا منه، وشعرت قلوبنا أنها ستحوزه، يحترق كهشيم في مهب إعصار هائج، يتبخر كسراب مع أول شمس تشرق عليه. هذا ما كان يسره لي كين في نفسه في هذه الدقائق التي ثقل مرورها

عليه كأنها سرمدية، حتى قطع عليه جده هذا الشرود بقوله: كين. انتفض الشاب كمن أصيب بصاعقة: ما...ماذا يا جدي، لم أنت متحمس هكذا؟

_هناك بين هذه الجموع بالقرب من المنصة التي تعرض رقصة التنين، أليست هذه الفتاة التي ترتدي الأرجواني تشبه سوكي إلى حد كبير؟ ثم أغلق عينه وفتحهما مجددًا ليردف: تعرف أن بصري في حالة متأخرة، ولكن مثل هذا النور محال ألا يرى، حتى وسط كل هذه الأضواء. وقف الشاب على الفور، سار بالاتجاه الموسوم يصطدم في طريقه بهذا وذاك ولا يكلف خاطره بالاعتذار حتى، حتى وصل إلى مقصده، فوجد فتاة تشع وقارًا وحسنًا تحاول أن تجلب فتاة ثملى تهذي بصوت مرتفع وتصدر ضحكات ساخرة بلهاء، حاول الاقتراب لعرض المساعدة، فالتفتت نحوه الفتاة التي جعلت عالمه ينهار بالكلية، فغر فاه محدقًا بعينه: ران، هذه أنتِ هنا؟ ثم قام بفرك جبهته وأردف بتوتر شديد: ران، ووهان، حجاب؟! كيف يجتمع كل هذا، لقد ظننتك تلك الفتاة سوكي، لم تحرك ساجدة شفتيها مطلقًا، لكن وجهها يوحي بقبول المساعدة؛ فالموقف الذي أرغمت عليه، لا يحبب إلى أحد أبدًا. حاولا سويًا إنهاض الفتاة الثملى فتفوه الشاب: أنا أعرف هذه الفتاة. لقد كانت بصحبة سوكي في محطة القطار ذلك اليوم، لقد بدت متعقلة كثيرًا، ما الذي يحدث الآن؟

رمقته ساجدة بنظرة غاضبة موحية: ليس مجال هذا الحديث السخيف الآن. أقبل الجد يمشي الهوينا، يحذر الاصطدام بأحد المارة فيرديه أرضًا فلا يقوى على القيام مجددًا، هب نحوه كين مساعدًا له، فأشار بكفه: أنا على ما يرام. ساعد الفتاة فحسب.. حَيّتْ ساجدة الجد. قدمها كين على

أنها صديقة ميكاتو مما أذابها وجعلها تتوتر كثيرًا. أقبل كين بسيارة للمساعدة حملا الفتاة الثملى للداخل، جلست ساجدة إلى جوارها، والجد بصحبة كين في المقعد الخلفي، همس الجد كواشيي إلى حفيده: هل يحب ميكاتو هذه الفتاة؟

التفت إليه كين مندهشًا ولم ينبس ببنت شفة، مما جعل الجد يضيف: لكنها تحبه، أعلم هذا، ثم وجه حديثه لساجدة بقوله: ما هو العنوان يا ابنتي، لا يجب أن نتركك بهذه الحال، فأجابت ساجدة بصوت مختنق وأشارت إلى العنوان، فأطلق كين صوتًا عاليًا: ماذا؟!!

إنه بالاتجاه المقابل للمنزل تمامًا، ثم انتبه لنفسه فاعتذر ولم يتكلم بعدها، ليس من خجله ولكن لأن له مع ذاته حديثا آخر "أبحث عنكِ وأنتِ دائمًا أمامي، أنت ملأ عيني، وقلبي، وعقلي، وعالمي بأكمله، حتى لو أن لي مئة نفس لأحببتك بها، ولو تشطر قلبي إلى الآلاف من القلوب الصغيرة، فلن تجدي بداخلها غيرك، هناك مسكنك حبيبتي، موطنك، هناك خبأتك بين الحنايا، أنتِ لي، أنتِ قدري، وشمس سعدي، لن أَمِل في متابعة سيرك، ولن أستسلم قبل أن أحصل عليك. هنا توقفت السيارة، ترجل الجميع عدا كين الذي سبح في بحر حبه العميق. ما زال الجد يكرر: لي كين، لقد وصلنا يا بني، هيا ساعد الفتاة.

حتى لمح طيفًا من بعيد فانتفض كمن صعقته الكهرباء مصطدمًا بسقف السيارة: من، ما، أين أنا؟ ثم ترجل من فوره محاولًا مساعدة ساجدة التي أبدت قليلًا من الامتنان نحو هذه المساعدة. هنا توقف الزمن للحظات،

ليسطر اللقاء الذي طال انتظاره لعام كامل، لقد كانت ووهان موعد اللقاء الأول، وها هي تجود به الآن، كانت عيني الفتى تلهج بالكثير مما يعجز عنه اللسان، تفيض بالحب، بالإعجاب الصادق، بالوفاء، بالعطاء الذي لا ينقطع. أقبلت الفتاة ترفل في وقار في ثوبها الزهري الفضفاض، أومأت تحيِّ الجمع برأسها، وقلبها يكاد ينفجر كقنبلة بدأت عدها التنازلي. تردد في داخلها: ما هذا الابتلاء الذي حل الآن، لم يظهر هذا الشبح باتجاهي من جديد؟!

ولكن قطع صوت ساجدة لحظة الصمت تلك لتقول: إن يوري تشتعل كالجمر الحارق، اطلبي سيارة الإسعاف. أخرجت الفتاة الهاتف بيدين ترتعشان خوفًا واضطرابًا، تحدثت بنغمات متقطعة: نعم، من فضلك احضر للجادة... لم يتجاوز الوقت عشر دقائق حتى قدمت سيارة الإسعاف، صعدت الفتاة بصحبة يوري، ولحقت بهما ساجدة، وعلى إثرها كين الذي لم يدخر وسعًا للمساعدة. بالوصول إلى المشفى أعلنت حالة من الطوارئ؛ فيوري بدأت تعاني ضائقة تنفسية شديدة. أظهرت نتائج الفحص الأولية إصابتها بالتهاب رئوي حاد. قام الأطباء بعزلها في جناح خاص، كما شددوا على عدم الزيارة، واقتراب غير الأطباء المختصين بتلك الحالة. شعرت الفتاة بالكثير من الأسى والحزن. افترشت الأرض وأخذت تنتحب بشدة: لقد قتلتك يوري، لقد أرديتك يا رفيقة، كان يجب أن أبذل جهدًا أكبر في البحث عنك. اعلمي أنني لن أتخلى عنك، حتى آخر نفس لي في هذه الحياة، سأبقى باتجاهك، لن أفلت يدك مرة أخرى بعد ذلك، والفتى بالقرب منها يهمس في ذاته: وهذا وعدي لك أيضًا. أقبل كين

نحو الفتاة يعرض المساعدة بحبور بالغ. فما كان منها إلا أن رمقته قائلة: سأشكر لك، إن خَلّيْتَنِي فحسب الآن..

ثم التفت تنادي: ساجدة، هيا بنا لنطمئن على حالة يوري من الطبيب المختص. مغادرة بطول الطرقة الطويلة بالمشفى دون التفاتة واحدة. تجاوزته كطيف غير موجود بعالم الأحياء، كأنه ضباب، لم تبالِ مطلقًا لبريق الحب بعينيه، حقنته بجرعة هائلة من اليأس كفيلة بأن تقضي على قصة الحب تلك، لكنه لصدق قلبه؛ تفهم موقفها، وراح يبرر لها بداخله، التمس لها من الأعذار ما لو سيره البعض في حبه؛ لنجا الكثير من الهلاك والدمار المحتم، لكن لا يأتى ذلك سوى في الحب الصادق، الحب الذي يتدفق كنهر الحياة بقلب حامله. المعين الذي لا ينضب مهما استقى منه العابرون. الشريان الذي لا ينقطع حتى لو أعدت ذبحه لعدة مرات بسكين مشحوذ، إنه يبقى لصدقه الذي لن يموت!

عاد كل منهما أدراجه إلى المنزل، الذي أحبه كين كثيرًا، لا سيما وهو مطل على أكثر شيء قد يرغب برؤيته مدى الحياة، إنه مطل على الشرفة التي اعتادت الفتاة سكناها على الدوام، ظلت حصنها الحصين في كل معاركها السابقة. لم يستطع كل منهما النوم ليلته؛ فكين يفكر في الفتاة التي أصبح من المحال أن يرى نفسه دونها طرفة عين. والفتاة تفكر بيوري، وما الذي حدث معها لتصبح على هذه الحال. هل هو الحب، هل يقتل الحب صاحبه، ويفضي به في النهاية إلى العدم؟ ثم تذكرت حديثها معها، وكيف أن كل حب قد أفضى بصاحبه دون الحب الأعظم هو مهلك لا محالة، فإن كانت الدنيا قد قامت على الحب، وبه اتصل الخلق، حتى الوحش والطير،

فهو يتناهى احتقارًا وضآلة أمام حب رب العالمين. أي ذنب اقترفته بحق نفسك يوري، أي هلاك قد جلبت لحياتك التي كانت آمنة مطمئنة؟! ثم تنهدت مردفة: ربنا اكشف عنا العذاب، اللهم لا تشغل قلبي بغير حبك، وحب كل شيء يوصلني إلى حبك، اللهم اشدد على قلبي فلا يرى العذاب الأليم. ثم أنهت دعاءها لتأذن لساجدة بالدخول التي بدت محترقة من الداخل حتى فاض اضطرابها على سائر ما بدى منها من جوارح. نظرت إليها الفتاة بإشفاق وقالت: أعلم، ربما ذكرتك حالة يوري بذكريات لا ترغبين في تذكرها، أعتذر على وضعك في موقف مشابه.

_ ليست يوري مطلقًا.. بصوت مختنق يشرف على البكاء.

_إذًا ما السبب في ذلك؟

_ لم تقدر ساجدة على حبس تلك العبرات كثيرًا فأذنت بانفتاح تلك السدود لتضيف: إنه لي كين، حين قدمني للجد على أنني رفيقة ميكاتو، لقد أعاد الشاب إلى ذاكرتي ما جاهدت لأتناساه كثيرًا، لكنها الأقدار التي لا مناص منها أبدًا. ضمتها الفتاة إلى صدرها قائلة: لا عليكِ حبيبتي؛ فكل أوجاع هذه الدنيا تشفى، وما وجدت داء إلا كان دواءه الذكر، فاصبري واحتسبي.

_ مسحت ساجدة العبرات الهاطلة على وجنتيها وأردفت: ليس الأمر كما تظنين، ولكن يبدو أن ميكاتو ليس على علم باعتناقي الإسلام، ربما خُيِّلَ إليه أنني أرسلتك نيابة عني، لأنني سأرحل ثانية، وأخشى مواجهة آلام الوداع. مؤكد أنه نظر للأمر بهذه الصورة، وإلا ما الذي يجعله غاضبًا

لاعتناقي الإسلام؛ فهو يكن قدرًا كبيرًا من الاحترام لهذا الدين الحنيف؛ فأحد أصدقائه المقربين في مجال التكنولوجيا هو مسلم وعائلته أيضًا مسلمة، ولقد استقر ميكاتو بصحبته لشهر كامل، فاستطاع أن يملك قلبه بما لديه من أخلاق حسنة ومباديء قويمة، وسلوكيات منضبطة منقطعة النظير، صدق قول القائل "الدين المعاملة".

شعرت الفتاة بفرح غامر. الآن هي تقف أمام حاملة لواء جديدة، تحمل بين جنبيها حب الدين، والدعوة إليه، ربما ستغدو ساجدة أُمَّةً بأخلاقها، تنشر تعاليم دينها في كل مكان؛ فالدعوة لا تحتاج إلى مؤتمرات وحملات، فكل شخص يدعو بنفسه، بسلوكه، بأخلاقه التي جعلت سببًا في الرسالة الدعوة إليها. وهكذا وعدت ساجدة الفتاة لتعود أدراجها إلى شنجهاي، فقد حان افتتاح عملها الجديد لأزياء المحجبات التي يصعب الحصول عليها بتلك البلاد.

في الصباح التالي. غادرت الفتاة، صوبت تجاه المشفى لتطمئن على رفيقتها، كما غادرت ساجدة نحو شنجهاي. بالطريق شغل الفتاة تفكيرها في حالة يوري، هل ستشفى؟ ما هذا الداء الخطير إلى هذه الدرجة، هل هو داء الحب يا ترى؟؟

وصلت الفتاة، وأسرعت الخطى نحو غرفة يوري التي وسمت بلافتة صفراء فاقعة قد خطَّ عليها (ممنوع الدخول لغير الأطباء المختصين).

_ماذا؟؟

ثم هبت من فورها نحو النزل الخاص بالأطباء، طرقت الباب بهدوء واستأذنت للدخول، فخرج إليها طبيبان موشحان بالأصفر تماما، لا يظهر منهما قدر أنملة. حاولت سؤلاهما عن حال رفيقتها، فتهادى إلى سمعها أن الفتاة تعاني وباءً معدي، مشابه في خصائصه إلى حد كبير (جائحة سارس) التي أهلكت العالم من قبل. اتسعت حدقتي الفتاة، وأضافت باكية: هل ستصمد أيها الطبيب؟

_ربما، كل ما في الأمر منوط بالمقاومة، فمن طال نفس جهاده، سينتصر بالنهاية. قالها منكسًا رأسًا من ضعف حيلته..

_إذًا لم يبق سوى الدعاء. وطالما أنقذني من براثن المهلكات..

همست بها بداخلها، ثم شكرت الطبيب وغادرت المشفى، لتجد أمامها مباشرة لي كين، الذي بدا متهللًا جدًا. على الرغم من صعوبة الموقف، وتصرفها السالف معه بالأمس، أقبل نحوها وابتسم قائلًا: كيف حال يوري اليوم؟

التفتت إليه وأجابت بعدم مبالاة: بخير. ثم أضافت بغضب: إنها مصابة بعدوى لا تشفى، ادعوا حتى لا تصاب بها، إنها معدية على الأرجح. ثم غيرت اتجاهها وغادرت مسرعة تتوارى في الجموع المزدحمة في أيام العيد، حاول متابعتها لكن دون جدى، لكأنها كانت طيفًا عابرًا وسط الزحام. لكن كين كان على يقين تام بحبه، وصدقه، أنه معركته التي سيذود عنها حتى النهاية..

تتابعت الأيام على الفتى، فلم تزده سوى حبًا وإيمانًا بحبه، وأنه على يقين تام بفوزه بقلب الفتاة، كان يقصد الجسر يوميًا من إعلان الشمس لوصولها حتى تقطع تذكرة الرحيل، آملًا في اللقاء الذي سيجمع بينهما من جديد. اللقاء الذي يكلل معركته بالنصر، وصبره بالظفر، لقد حقق كين جميع قواعد الحب، لقد عف، وصبر، وكتم، لكن ينقصه أمر واحد، هو الأهم من جميع ما سبق، ينقصه تخليص قلبه من الحب بسبب إلى الحب بلا سبب، من حب المخلوق، إلى الحب الأعظم وهو حب رب المخلوق، في كل يوم كان يحترق شوقًا لإعلان حبه الذي طال انتظاره، أصبح يخرج ويعود بغير موعد ولا وجهة، إلا الوجهة التي يلتقي بها الفتاة، فالأربعة عشر يومًا التي انقضت لم تحسب بعداد عمره، لأنه لم يرَ بها الفتاة، مما دفعه أن يذهب إلى المشفى في غروب ذلك اليوم الذي كان عيدًا فوق كل أعياده، فما إن وصل إلى هناك، حتى وجد الفتاة تركض باتجاه مسرعة. تيبَّس الفتى بأرضه، مع كل خطوة تتقدم بها نحوه الفتاة كان قلبه يفارق أضلعه عائدًا إليها. توقفت الفتاة أمام الشاب الذي حبس أنفاسه لتقول بتوتر بالغ: لقد.. لقد كنت بانتظارك لفترة، الأطباء في المشفى أفادوا بضرورة خضوع كل من كان بالحادث للفحص الطبي، لقد ذهب فريق طبي ليفحص الجد، وهم ينتظروننا بالداخل.

ثم أخرجت قناعًا من حقيبتها ودفعته له قائلة: ارتدِ هذا رجاءً؛ حتى لا يتأذى أحد. كل هذا الحديث وهو متصلب تمامًا لا يحرك ساكنًا، ينظر إليها، يتفجر الحب ينابيعًا في عينيه، يردد بذاته: يتأذى، وما هو الأذى بجانب ما أنا فيه الآن، فليهلك كل أذى في سبيلك، فليحترق داخلي كل حين في

حبك، فحتى لو أهلكني حميم حبك، سأبقى على العهد، سأبقى على الحب، حتى يفنى العالم بكل موجوداته...

كطيف هائم ظل يسير في رحابها، يتبعها دون توقف، ينفذ كل ما تقول دون أن يفكر، جلسا سويًا بانتظار ظهور النتائج التي أفادت أن نتيجة الفحص سلبية، غمرت السعادة الفتاة، التفتت نحوه بسرور لتقول: الحمد لله أننا بخير، أنك.. أقصد الحمد لله على المعافاة.

ثم غادرت المكان تطوي الأرض طيًا تعجلا للرحيل. وأثناء رحيلها تلقت اتصالًا هاتفيًا من ساجدة يبشرها بسلامتها، كما أن قصة حبها مع ميكاتو قد آن لها أن تتوج بطيب الوصال في الحلال. الفتى ذاهب لطلب يدها من جدتها، لقد أصبح ميكاتو عبد الله، ثم أضافت تبكي فرحًا: لقد جعلك الله سببًا في هداية نفس أخرى، هنيئًا لكِ يا فتاة، فلم يكن من الفتاة إلا أن حمدت باكية، وأسرعت بالعودة إلى منزلها. هرولت نحو قبلتها تذرف دموع الامتنان والحمد، الحمد لله، لقد وفيتِ جزاء ما صبرتِ يا فتاة، الحمد لله أن جعل مني سببًا لإنقاذ حياتهم، وهنا تذكرت حياةً أخرى كانت قد قطعت وعدًا بإنقاذها، فهتفت قائلة: اللهم ألهمني من أمري رشدًا، اللهم أنت حسبي ونعم الوكيل... الدعوات التي ترسل إلى بريد لا يمكن فقدانه أو ضياعه، البريد المحفوظ في خزائن رحمته التي تغشانا في كل حين، كم من دعوة نسيناها وكم من رجاء ادخر لنا لتنفيس كربة وتفريج غمة ربما لم تخطر على بالنا يومًا!

الدعوات التي تزيح الكثير من شقاء الدنيا، وعناء عيشها، الدعوات التي جعلت منها الفتاة كل ذخيرتها وعدتها وعتادها في مواجهة كل أحداث ماضيها، وحاضرها. الدعائم التي استندت إليها في أحلك ليالي دربها قتامة وبؤسًا، السلاح الذي لم ولن يخطئ يومًا. جلست الفتاة تسترجع وعدها السالف، وكيف يمكنها تحقيقه، فبريق الحب في عيني الشاب لا يعجز عن رؤيته سوى من فقد قلبه، حتى الضرير يبصره بنور بصيرته التي يستحيل ألا تهتدي إلى صدق هذا الحب، ولكن كيف، كيف السبيل إلى إعادة بعث هذا الشاب من رفات العدم مرة أخرى؟

ليس هناك ما يمكنني فعله سوى طلب غوثك يا رباه، اللهم اغثني، وأغث قلبي العاني بحولك وكرمك يا كريم، ثم برحت موضعها. تستنشق بعض الهواء الذي فقدت منذ فترة ليست بالوجيزة. تتفقد أزهارها، ورياحينها التي هجرت. سحبت شهيقًا عميقًا. أغمضت عينها، ودفعته ببطء نحو الخارج، تردد: "سيمضي، كل هم طالت مدته سيمضي، كل بلاء عظمت وطأته سيمضي، كل تلك الجروح ستندمل. كل تلك الأوجاع ستُشفى، فمهما كان الأمر عظيمًا، "إن معي ربي سيهدين". قالتها بقين تام، لتفتح ناظريها على الشاب الذي يطوف ذهابًا، وإيابًا في حيرة من أمره بالجادة المقابلة، فارتجف قلب الفتاة خوفًا، تذكرت اعتصامها ورددت الآية التي عدتها سبيل نجاتها دومًا، ثم دلفت للداخل، حيث أغمضت عينيها كأن شيئًا لم يحدث مطلقًا.

في الصباح التالي، استجاب لي لنداء جده بعد فترة من الوقت، خرج يتثاءب ويفرك وجهه وجبهته مرارًا مدافعًا النعاس، يبدو مرهقًا جدًا، كأنه أمضى

ليلته في عمل شاق، وما أشق من عمل الحب وصبابته! تناول بعض الطعام بصحبة الجد على عجل، ثم التقط حقيبته وخرج مسرعًا نحو المشفى، مغيرًا مقره المعهود أعلى الجسر. لم تكن الليلة التي أمضاها الشاب مستيقظًا على غير طائل، فقد اتخذ قرارًا مصيرًا، وهو عازم على تنفيذه اليوم مهما كلفه الأمر. مضت ساعتان تقريبًا وهو لا يزال على ذات حاله، يقف بجوار المدخل الرئيسي للمشفى. لم تصل الفتاة حتى الآن، زاد الوقت ساعة ثالثة لتطل الفتاة تشع فرحًا وسرورًا، حرصت على إيقاف السيارة لانتظارها ريثما تعود من الداخل، تسلل الشاب من خلفها، ليجدها تصطحب تلك الفتاة الثملى قبلًا، أثار ذاك الموقف دهشته "ما الذي يجعل هذه الفتاة تحظى بكل هذا الاهتمام لديها؟ تبدو فتاة عادية، كما أنها كانت ثملى موبوءة بالأمس القريب." ثم رفع حاجبيه دهشة، وأردف بقوله: لا يهم، سأتبعها إلى المنزل، وأخبرها بكل شيء.

خرج كين من خلف الفتاتين. استوقف سيارة وأرشدها إلى العنوان المطلوب. اصطحب باقة معبقة بشذى الجوري الأحمر والأبيض، تحيط بهما أزهار الياسمين، وظل يرتب كلامًا يحدث به الفتاة في داخله طوال الطريق. وعندما أشار السائق على العاشق المتيم بالوصول إلى وجهته المنشودة، ترجل مترددًا عن السيارة، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى، ثم صاح بنفسه قائلًا: إلام احتمال هذا الألم؟ ما هي إلا طرفة عين، ونضع تلك الأثقال." ثم تقدم نحو الفتاة التي تساعد رفيقتها، فجثا على ركبتيه قائلًا باضطراب: سوكي، أعلم أن هذا لا يقال في مثل هذه الأوقات، ولكن هل تقبلين الزواج بي؟

توقفت أنفاس الفتاة، شعرت أن قلبها توقف عن العمل، اتسعت حدقتاها، ضاق صدرها كثيرًا، حاولت استنشاق بعض الهواء الذي يبدو أنه نفذ لديها، ثم ابتعلت أشواكًا قد غُصَّ بها حلقها، والتفتت إلى يوري قائلة: هيا، هيا بنا. ثم ولت مدبرة ولم تعقب.

وعلى الرغم من الصدمة التي أصابت لي كين، إلا أنه ظل على تلك الحال حتى ساعات متأخرة من الليل، يأمل أن تخرج الفتاة مرة أخرى فتراه على تلك الحال. ظل جاثيًا على ركبته طوال ثلاث ساعات، لا لشيء سوى لأمله وإيمانه بحبه الذي يزداد يومًا بعد يوم.

في الصباح التالي استيقظت الفتاة على أنغام العصافير، وأشعة الشروق الآسرة، استحضرت بعض ذكرياتها مع رفيقة دربها يوري. سارعت بتحضير الإفطار، وإيقاظ يوري التي كانت تتعامل معها كأن الخلاف الذي شب بينهما قد محي من ذاكرتها تمامًا. آثرت عدم سؤالها عن أي شيء، لكن يوري آثرت بدورها الكلام فباردت قائلة: لنعم الرفيقة أنت، ولنعم ما جبلت عليه.

_ لا أعلم عن أي شيء تتحدثين، هيا تناولي حساءك قبل أن يبرد.

_ نظرت يوري نحوها باكية: لقد تخليت عنكِ، لأنني أحببت السراب، الذي لم يلتفت إليَّ حتى.

_ دعك من هذا الحديث الآن.

_ لا، بل هذا هو مجاله الآن، شكرًا لك على كل شيء، رفقتك، نصحك، بقائك إلى جواري. لقد كنت أنتِ حين تخلى الجميع، وحضرتِ أنتِ

حين غابوا، أتمنى أن تصفحي عني، اصفحي عني أرجوكِ، ثم انفجرت في البكاء. نهضت الفتاة وعانقتها: لقد سامحتك، قبل أن تطلبي حتى، فأنتِ رفيقتي ومؤنستي، هيا كُفِّي عن البكاء رجاءً.

_ هل يمكنني أن أضيف شيئًا ما، أتمنى ألا يزعجك ما سأقول، ثم تنهدت قائلة: أرأيت ذلك الشاب الذي لم يبرح مكانه واقفًا هناك بالأسفل، إنه يحبك بصدق، يستطيع فهم ذلك من لم يخلق له قلب، صدقه يفيض من عينيه، وقبل أن تستفيض يوري في الحديث قاطعتها الفتاة: دعك من هذا الآن.. ثم رددت بصوتها الرخيم مترنمة بأحد الآيات التي لم تفهمها يوري لكنها استأثرت بقلبها قبل سمعها الذي ظلت عالقة به مدة طويلة، أومأت برأسها إيجابًا، ثم أضافت: لقد شاع خبر حبي البائس في الأرجاء، ودنست رائحته الشركة، فترامت أخباره إلى الشاب الذي أحببت. فما كان منه إلا أن قام بدعوتي للغذاء، تهللت عندها كثيرًا، ورحت أردد لقد أشرقت شمس سعدي، حتى وصلت إلى المطعم الموسوم، فوجدته بصحبة امرأة وطفلين، قلت: علَّها عائلته، ويرغب في تقديمي إليهم، لأنتهي عند قوله: "أريد أن أعرفك إلى زوجتي سومي، وهؤلاء أطفالي." عندها شعرت أن إعصارًا هائلًا التهمني وراح يطوف بي في الأقطار الأربعة. نزل الخبر على قلبي كصاعقة محرقة، لم أتمالك دموعي أمام الجميع، ثم فررت هاربة أغادر المكان، لم أجرؤ على الذهاب للعمل ثانية، حاولت نسيانه بكل طريقة ممكنة، ثملت وثملت لليالٍ عديدة، لكنني في كل صباح كنت أستيقظ على حقيقة واحدة، الحقيقة التي وددت أنني لم أعرفها أو اهتدي إليه يومًا. أتمنى لو لم يخلق الحب، لو ماتت المشاعر، ووئدت

الأحاسيس، لو أنني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا! لقد دفعت ثمن طيشي وحمقي وجهلي أضعافًا مضاعفة. فقدت كل شيء، نفسي، احترامي لذاتي، عملي، زملائي، قلبي الذي استحال كهشيم محترق، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، أصبحت لا أرى أي شيء، ولا أرغب في شيء، ولا أشعر بشيء، أخبريني: هل أنا شبح هائم في معامي التيه، ومراتع الهلكة؟ هل أنا طيف ضل طريقه إلى عالم البشر؟

ثم هزتها بشدة: أخبريني من أنا، من أنا؟ ثم أجهشت في نحيب طويل فقدت على إثره وعيها. استدعت الفتاة سيارة الإسعاف. غادرت برفقة صديقتها، لم تبد اهتمامًا بالشاب الذي كان يلاحقها: سوكي، لقد نسيت أن أخبرك بأمر هام، سوكي، امنحيني القليل من فضلك، ولكن ابتعدت السيارة شيئًا فشيئًا فانقطع صوته دون أن تعلم ما الذي أراد قوله.

استمرت الفتاة برفقة صديقتها بالمشفى لأسبوعين، لم تفارقها مطلقًا، حتى أنها اعتذرت عن الذهاب لخطبة ساجدة وعبد الله، لكنها كانت تسلي نفسها دومًا بقوله: "ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا". ومع امتداد المدة بدأت يوري تستعيد عافيتها ووعيها، وأظهرت انضباطًا كبيرًا في سلوكها، مما سمح بخروجها من المشفى، التي قضى كين طول المدة تلك على ذات حاله، يذهب كل يوم إلى أعلى الجسر، ولا يعود سوى في ساعة متأخرة من الليل.

ومع عودة الفتاتين للمنزل استطاع الشاب أن يلمح طيف الفتاة تقف بالشرفة لتناجي أزهارها، ونجوم سمائها، يقتطع البدر من جملها حسنًا،

وتشرق الدنيا لبريق ثغرها البسام. ابتسامة ملائكية ساحرة، كانت السبب الأول وراء ما حققته الفتاة من إنجازات. هذا التواصل الجسدي البعيد، الذي يترجم إلى معانٍ عدة؛ الأمان، السماحة، الحب، السكينة، فمن سكنت نفسه وسمحت ببعض الحب فهو آمن لا محالة، آمن من خلل الاضطراب النفسي والوجداني، يسير في ركاب الإنسانية ليفيض بالسلام والهدوء، لذا فليس ببعيد أن تكون الابتسامة في ديننا صدقة، وهو دين الأخلاق في المقام الأول.

وما إن أشرقت ظلمات الشاب بتلك الابتسامة حتى ذاب قلبه حبًا. يستحيل أن أحيا دون رؤية هذه الابتسامة بعد الآن، فاليوم حلم، بالغد تحقيقه. ثم ينتبه على صرير أقدام جده العجوز، وعصاه التي تشق سكون الليل الهاديء، التفت كين ليطمئن عليه؛ فإذا هو يحمل كوبين ترتعش لهما يده بشدة. هرول الشاب مساعدًا جده المسن، جلسا على الطاولة الصغيرة وسط باحة المنزل، نظر كين إلى جده متسائلًا: لم أنت مستيقظ حتى هذه الساعة المتأخرة يا جدي؟

ارتشف الجد القليل من شراب التوت بكوبه، ثم نظر بعين مغلقتين شيبًا نحو حفيده ليقول: أنا في العادة لا أستيقظ في مثل هذا الوقت، لكن زارني طيف "حبيبتي يوكو" ؛ فلم أعد أستطيع النوم.

ـ وهل كل حب يفضي بصاحبه إلى عدم الراحة هكذا؟

تأوه الجد ماسحًا لحيته المتهالكة ليضيف: ليتني أستيقظ ألف ليلة، وأراها، ولو لمرة واحدة. يا ليت كان عناء الحب كله سهرًا، فماذا يفيد الرقاد إذا

سلبت راحة البدن؟! إذا كان القلب مكلومًا بتباريح الفراق، والعقل ملجومًا بفرط الأسى، فحتى لو تناولت عقاقير تفضي بك إلى سبات عميق، لن يستطيع جسدك النجاة من آلام الشوق وحتوفه. إنها دائرة مفرغة، لا يرى طرفاها؛ قلب، وعقل، وجوارح، روح، ونفس تتجرع السهاد، كلها ممزوج ممزوج بالشعور بين الحنايا، والضلوع.

نظر الشاب إلى الحنين المتدفق في عيني جده، ثم أطلق بصره نحو الفلك اللامع، فسأل الجد: ولكن، لِمَ أنت مستيقظ؟

_ لقد أقض الحب مضجعي، وأيقظ جفوني، كأنما علقت بأطراف السماء، كلما اتّكَأتُ على جنب أراها، تركض كملاك جميل في صورة بشر، كالقمر قد استدعى جميع أقمار الكون وتجمع فيها، كفراشة آسرة ترفل بين أزهار الربيع، لقد رأيت العديد من الفتيات في حياتي، لكنني لم أرَ مثلها يومًا. قد استطعت تفسير كل قرار اتخذته في حياتي، إلا قرار حبها الذي لا زلت لا أستوعبه حتى الآن، لا أدري ماذا قد صنعت تلك الفتاة بي؟

_ ربتَ الجد على كتف حفيده معقبًا: راجع ما شئت من قرارات حياتك، لكن الحب ليس قرارًا؛ فهو ليس خيارًا حتى نقرر بشأنه، إنها مقادير نسير في ركابها يا بني، ولأجيبك عن سؤالك المحير ذاك: جميع الفتيات لم تحرك تلك المضغة بداخلك، حتى وإن حازت إعجاب عينك، لكن الإدراك الحقيقي يكون بالقلب، القلب فقط هو سيد الإدراك.

صمت الجد وحفيده لبعض الوقت، يغلي كل منهما بحنينه واشتياقه، ثم انتفض الشاب واقفًا: جدي، لقد قررت اعتناق الإسلام، إن كان هذا هو جسر واصلها، سأبنيه بلا هوداة.

أجاب الجد وهو لا يزال ينظر لحبات السماء: إن كان هذا عن اقتناع، فمرحبًا، أما إذا كان مجرد طريق للوصال، فلم يعجبني ما تفكر به، إن هذه العقائد لا تؤخذ بالهوى يا بني.. لا بد أن يستقر يقينك في قلبك؛ حتى يجلي عقلك عن قرار صادق، ثم نظر بعينيه مباشرة وأردف قائلًا: يا بني، أعلمُ أن معدنك صافٍ كاسمك تمامًا، وأنك ستهتدي إلى الصواب لا محالة.

ثم تناول عصاه، زاحفًا بخطاه البطيئة المخلخلة إلى الداخل، تاركًا الفتى المتيم ينتظر مرور الساعات حتى تشرق شمس أخرى، كان قد وسمها بشمس أمله.

في الصباح، استيقظت الفتاة على الأشعة المتسللة من زجاج النافذة، لم تتذكر لفرط إرهاقها أين هي، وماذا كانت تفعل. جلست على سريرها قليلًا تتفحص المكان، ثم وثبت فجأة كمن وخز بإبرة عملاقة: يوري، كيف نسيت الأمر؟

وأسرعت باتجاه غرفة الفتاة، لتجد الفوضى تعم المكان. أوراقًا ممزقة، آثارًا لرائحة كريهة، ربما هي خمور، مذكرة نصف محترقة، وثيابًا ملاقاة هنا وهناك، وكتبًا منثورة بين ثنايا الغرفة، كأن الأرض قد دارت بهذه الأمتار فقط، فقلبتها رأسًا على عقب. ظنت الفتاة أن رفيقتها أصيبت بنوبة اكتئاب ثانية، فسارعت بارتداء ثيابها لتخرج بحثًا عنها، لكنها صادفت مطوية قد

التصقت بباب المنزل من الدخل كتب بها "أعلم أني قد خذلتك كثيرًا، وأضنيتك تعبًا؛ فسامحيني رجاءً. لم أستطع الإبقاء على صداقتنا أو رفقتنا، لقد أضعت كل جميل كنت أملكه، ولم أعد أستطيع استعادة ما استلَّه الزمان مني، وما أعانيه الآن تنوء به القمم الرواسي، ولو حماته السماء لهوت به مهلكة الأرض ومن عليها، إن بداخلي من الألم ما تعجز كلماتي أن تحيط بكنهه، وتعجز أحرفي عن التعبير عنه. ما عدت أدري كيف ضاع الدرب مني، ما أشقاني، وما أشقى العشق البائد؟ صدقيني لأن أموت دفعة واحدة، خير لي من الموت في كل ثانية. كل نفس آخذه يحرق رئتي، كل لحظة تقتلني آلاف المرات. كل مرة تضيعين بها وقتك معي، أود لو أقتلني بسكين صدأ بالي؛ حتى أموت آلاف المرات قبل أن تزهق نفسي؛ لقتلي الأمل بداخلك، والراحة والسكون بطرفك. سأرحل اليوم؛ لأن في كلتا الحالتين موت، ليس هناك فرق بين كلتا الموتتين. أسير في صمت كأشباح الليل الحالك، أحمل القتامة والوجوم لمن حولي، فما الفائدة إذًا من تلك الحياة؟ الحياة التي لا يُبنى فيها المرء، لم يستحقها يومًا، سأرحل عن العالم الذي أضحى كذكرى بالية محترقة. تغلي بداخلي، لتحرقني، لتهلكني، لترديني بأنفاس مختنقة، وذاكرة مشوشة. سأرحل وآخذ معي كل هذا الزيف العابس، كل حلم عجزت عن تحقيقه، كل أمل بددته بطيش حبي الفاني. سأرحل لا ألوم إلا نفسي، لأنني أحببت السراب..

طوت الفتاة الورقة، وأسرعت يهمي دمعها كأم ثكلى. كانت حائرة تائهة، لا تدري أين تطوف أو تبحث، قطعت نصف النهار تسأل المارة، وذهبت إلى مقر عمل يوري، الأماكن التي كانت تذهب إليها، المشفى، حتى

اتصلت بالشرطة تطلب المساعدة، لكنها على الرغم من ذلك تابعت البحث بكل مكان قد يجول بخاطر يوري الذهاب إليه، حتى انتهى بها المطاف أعلى جسر (يانج شيانج)، وقفت تبكي، وتطالع أمواج اليانجستي الهادئة حين تداعبها شمس الأصيل. القوارب التي تغدو وتروح هنا وهناك. نظرت من حولها، كيف يطفو هذا الهيكل العملاق فوق الماء؟ إذا استطاع هذا الجسر عبور اليانجسي الهائل، سأعبر ممر الأحزان، سأخرج من نفق ظلامها، سأطفو بنور اليقين فوق كل هم. وبينما تردد تلك الكلمات وتختمها بقولها "وأفوض أمري إلى الله" حتى شعرت بمن يدنو، ويقترب منها مُظهِرًا حبورًا، وابتسامة عريضة، التفتت إليه بذهول تام: أنت!!

_ نعم، من فضلك امنحيني دقيقة واحدة، لتجودي عليَّ بعمر كامل، لقد عزمت اعتناق الإسلام، من فضلك لا تديري وجهك لي هذه المرة أيضًا.

أشاحت بطرفها أرضًا، تنهمر الدموع على وجنتيها، ثم تغادرها مسرعة تعانق الغبار المتطاير على الجسر، بكت لا تعلم لأي شيء تبكي، لفرحها بنجاة كين، أم لبؤسها لهلاك رفيقتها التي لم تستطع إنقاذها من براثن الضلال. ارتعد الشاب فزعًا فعقب قائلًا: آسف لو تسببت لك بالأذى، لم أقصد هذا مطلقًا، أنا لم أرد إزعاجك مطلقًا بوجودي، لقد انتظرتك ها هنا لمدة ثلاثة أشهر مضت، وما كنت على يقين بما أفعله كيقين اليوم، صدقيني لقد فكرت كثيرًا بالأمر. ظلت الفتاة تبكي غير منتبهة لما يردده كين، أو ما يقطعه من عهود، لم يعد إليها وعيها سوى صوت هاتفها الذي أجابت عليه من فورها: نعم، أنا قريبة من المكان، سأحضر على الفور.

ثم طوت الأرض بكاءً حتى المكان الذي وُسِمَ لها، وبالطبع تبعها كين، تسللت بين الجموع المتزاحمة، لتصدم بما تعجز عن تحمله، إنها يوري، لقد ألقت بنفسها من أعلى جسر بالعالم. آثرت الموت غرقًا؛ لأن عشقها البائس، هو من أغرقها في ظلمات لا تزول. لقد نجت يوري من فك الكورونا، لكنها لم تستطع النجاة من آلام الندم القاتلة، فحتى وإن كانت الكورونا بلا دواء، فإن من الحب ما قتل!

أطلقت الفتاة صرخة مدوية، فشقت عنان السماء، وجموع المتزاحمين، وضجيج المارة والسيارات، صرخت بصوت مكلوم، مختنق، باكٍ:

يوريبي، لمَ فرطت بنفسك يا رفيقة، يوريبي، لن يسعني رثاء الدنيا كله لك، ليس المصاب في الموت أو الفقد، بل فيما يلي من حساب!

ثم انتحبت لتسقط فاقدة الوعي الذي لم تستعده سوى بعد يومين لتجد نفسها في غرفة للرعاية الفائقة على جهاز للتنفس الاصطناعي، فتحت عينيها في جزع وإعياء تطالع المكان، شعرت بأنفاس مكتومة تتسرب لرئتيها ببطء، جسمها يغلي كداخل بركان ثائر. تشعر بخفوت نبضها، كأنها ستفارق عالم الأحياء. أقبلت طبيبة تشبه في هيئتها رائد فضاء مكسو بالأصفر بالكامل، عصفت الفتاة بذاكرتها المشوشة. أين رأت هذه الهيئة من قبل، ثم التقطت نفسًا مفاجيئًا كمن عاد من الموت وهتفت بهلع: أين أنا، هل أنا مصابة بـ(كوفيد ١٩)؟

أشارت إليها الطبيبة التي تراقب نبضات قلبها، اهدأي رجاءً، إنك بمشفى (هوشنان) المخصص لعلاج مرضى (كوفيد ١٩)، أريد منك أن تعددي لي آخر الأماكن التي ترددت عليها خلال الفترة الماضية.

_ أجابت بوهن: لقد طُفت بجميع خوبي، ولا أستطيع حصر الأماكن.

– لقد كنت أتساءل عن الفتاة التي كنت برفقتها، ثم أضربت: "أعني المتوفاة.

_ لا تقلقي، لقد أدى الشاب الذي كان برفقتك جميع طقوسها.

_معي؟!

_ نعم، إنه ملتصق بجدران المشفى، يرفض المغادرة، لا يبارح مكانه مطلقًا، ولا يطرف له جفن. هذا ليس في صالحه، وإن كلفني الأمر سأستعدي له الشرطة. نحن في وضع حرج، ونسعى للخلاص منه، لا مجال لمثل هذه الأفعال الحمقاء. قالتها بنبرة حازمة جدية ثم دونت بعض الملاحظات، وانصرفت.

ها أنا اليوم أتركك، في المرة الأولى التي أتمنى فيها لقاءك. لاح الرحيل في الأفق البعيد. وبدا الفراق أقرب من اللقاء. شمس لقائنا تمشي نحو الغروب، لتقتلني على قيد الحياة. أخشى أن يستل الخوف سيفه في الظلام. أن تزهق روحي قبل أن تنهض روحك من رميم العدم. لكم تمنيت أن يهدي الله نفسك. أن أرد عليك روحك بعد أن رددتها لي مرارًا. أنت لم تخرج في سبيلي عبثًا، ربما كنت آخر مهمة لي في الحياة. اختباري الوحيد، الذي يمتد لآخر أنفاسي. أتمنى لو تحاكيك عبارتي الآن. لو يصلك نبض

خاطري. لا تربط اعتقادك بشخص؛ لأنه سيتبدل ويتغير بزواله. ستبغضه وتبغض كل ما يذكرك به. ستقتل الذكرى التي جمعتك به مرارًا، ترديها لآلاف المرات في لحد الكراهية والجحود. بل امزج اعتقادك بماء اليقين الذي يحيا بداخلك.. ليتك تسمع كلماتي الآن، فلا أملك لك سوى الأمل، أمل اللقاء في ساحة اليقين!

أنغام ترنم بها فؤاد الفتاة، قبل أن تدخل بغيبوبة لا يعلم متى تعود منها. إذا كانت ستعود..

تتابع مكوث كين، كأحد جدران هوشنان البائسة، التي تضم بين جنباتها ألف قصة باكية، ونهاية مفزعة، كان للأجل فيها السطوة الأولى، وللفراق الضربة الثانية، التي تصيب فلا تخطيء، وتبقى فلا تزول، لكنه يسحقه الجوى في كل ثانية تحملها روحه المعذبة بالهجر المباغت. قرر التسلل خلسة أثناء جلبة أحدثتها تشييع بعض الجثمان، ودلف للداخل، غير مبالٍ بما يحدث، حتى لو كلفه الأمر روحه، فهو لم يعد يتحمل هذه الروح المكبلة. دلف خلسة إلى الغرفة المخصصة للفتاة، جثى على ركبتيه بجوار مرقدها يعتصره الألم، يمزقه الوجد، يقتله الشوق ببطء، اختنق جوفه بالبكاء. تحدرت الدموع على خديه. تهطل كالسيل الجارف، الدموع التي لم يعد هناك حاجة لكبحها أكثر، الدموع التي ادّخَرها لسنوات مضت، إنه موعد هطولها الآن. لم تسعفه الكلمات كثيرًا، لكنه همس إليها بوجد: عزيزتي سوكي، أعلم أنك تسمعينني الآن. وتقولين أنا لست سوكي، لكنكِ بالنسبة إلي سوكي. أنتِ السعادة الوحيدة التي أرجوها في هذه الدنيا، والحياة الوحيدة التي أرجوها في الحياة. صدقيني مهما تحدثت من كلمات

لن تَشُفّ مطلقًا عما بداخلي. ليتني أموت كل يوم ألف مرة ولا أراكِ على هذه الحال. لقد أردت أن أخبركِ بتحديد موعد زفاف عبد الله، وساجدة. لقد وعدت بأني سأزفك عروسًا لهم في ذلك اليوم. أنا اليوم بانتظاركِ. الغد والأمس. حتى تتوقف الساعات، وتفنى كل الأوقات، حتى بعد أن تفنى سأكون أنا بانتظارك. ثم أجهش في البكاء، فلفت انتباه الطبيبة التي تمر بالخارج، فاشرأبت تنظر من النافذة. اتسعت حدقتاها يتطاير منها الشرر. أحكمت أقنعتها وأوشحتها، ثم وثبت للداخل. سحبته من يديه بعنف، وهو مستسلم تمامًا، حتى دفعته خارج المشفى، وصاحت به في غضب: إذا كنت لا تخاف على نفسك، فاستشعر الخوف على أسرتك وعائلتك، كيف تُضَيِّع نفسًا حية مقابل أخرى محققة الموت أيها الأحمق؟ رفع كين ناظريه نحوها بانكسار: هذه عائلتي الوحيدة التي أرجوها من الدنيا، ولا تقلقي بشأن انتقال العدوى. ثم ضرب صدره بأقصى قوته مردفًا: إن العناء الذي يقبع هنا أشد فتكًا بملايين المرات مما تصفين الآن. إن المرض غير قاتل انظري إلى من يتعافى منه يوميًا، ولكن هل رأيت يومًا من تعافى من آلام قلبه؟ أيتها الطبيبة البارعة أنت ماهرة بمعرفة الفيروسات والعدوى، حاذقة في أسباب انتقال البكتيريا، تحفظين وعن ظهر قلب جميع أنواع مسكنات الألم، فهلا تصفين لي مسكنًا لجراح قلبي! هل أنتِ بارعة بمعاجلة حمى القلوب بقدر معالجتكِ لحمى الجسد. أعيدي إليَّ روحي من العدم إن كنت تقدرين، هيا ولا تبخلي على المكلوم قلبه، ولأضيف إليك هذه الفتاة تحمل بداخلها حياة تعجزين عن فهمها أو استيعابها. ماذا يفيد شرح أعمال

القلوب لمن لا يملك واحدًا! ثم رمقها بنظرة غاضبة، ونفض يديها عنه، ولسان حاله يقول:

يَا لائِمي فِي هَواهُ والهوى قَدَرٌ** لوْ شَفّكَ الوَجْدُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلُمِ

ثم رحل باتجاه جده. لا بد أن أصابه القلق؛ فالفتى لم يعد لشهر مضى.

قطع المسافة نحو المنزل، والأمطار تهطل بلا توقف أو استئذان، تهمي وتهمي بلا تراجع، الأمطار التي حملتها سحائب حبه الصادق، وحنينه القاطن بأعماق قلبه. وصل إلى المنزل ليجد الجد كديدنه يناجي طيف يوكو العابر. يرثيه بكلمات الحب الخالد. التفت الجد نحو حفيده الذي لم تتحرك شفتاه، ثم نكس رأسه متنهدًا: كيف السبيل إلى دواء لم يخلق، لوباء قد طال الأولين والآخرين، كيف يُداوى والهوى قاتل الفتى؟

وفي كل يوم قلبه يتمزق؟!!

دخل كين إلى غرفته، يتقلب في الفراش، يجافيه النوم لعدة ساعات، حتى انتهى به حاله إلى ذات مقامه السالف (المشفى). لمح طبيبًا يغادر على عجلة من أمره. يسارع بنفض الفيروسات التي خلفها وراءه، أسرع نحوه الشاب متلهفًا: أيها الطبيب، كيف حال الفتاة بالغرفة الخامسة والعشرين رجاءً؟

صمت الطبيب للحظات، محاولًا الفصل بين الحالات بالداخل؛ فالمشفى يتوارد عليها المئات ويغادرها المئات أيضًا ما بين فقيد ومعافى. فتكرر سؤال الشاب بنبرة تفيض بالهلع: أخبرني من فضلك.

نكس الطبيب رأسه وأضاف: أعتذر منك، ستخرج الجثمان بعد قليل. ثم سارع بالانصراف.

لم يجرؤ الفتى عن التبين أكثر. مضى نحو موضعه المعهود يتمتم: ما هذا الهراء الذي يتحدث به هذا الطبيب، لا بد أنه يعاني من الهذيان؛ فأنا أشعر بها، إنها هنا تنبض بداخلي. لا يمكن أن تنتهي هنا قصتنا التي لم تكتب بعد! لست في عجلة من أمري مطلقًا، سأصبر حتى يمل الصبر مني، حتى ينخر عظامي، وتغدو رفاتًا متطايرًا. سأصبر حتى يأذن قدري باللقاء، سأصبر..

حتى انتهت تلك اللحظات بخروج أربعة صناديق خشبية، صنعت بطريقة حذرة، مخصصة لنقل جثامين ضحايا الوباء الغاشم. انتفض قلبه لتذكره حديث الطبيب السالف. عاد يكذبه من جديد، حتى لمح طيف الطبيبة المُعَنِّفةِ له قبلًا تتوارى لدى رؤيته. تخبيء دمعها، تسارع بإخفائه، هنا بدأ الخوف يدب في أعماقه، ينتزع منها كل شعور بالأمل والرجاء، كل أمنية باللقاء، هرول نحو السيارة التي ستنقل الجثمانين، فأبعده الأمن على الفور، فصرخ بأعلى صوته: سوكيي، كيف لك أن تتركيني الآن؟؟

سوكيي، يا خائنة الوعود، هيا أجيبي؟

هيا عودي لمرة واحدة، وابتسمي بوجهي، أتراها كثيرة ابتسامة بحقي. إذا عودي واضربيني، اقتليني، أحرقيني بنار حبكِ التي لا تخمد، مزقيني أشلاءً بهجرك، ارجميني بحجارة الشقاء في درب حبك، اصعقيني بتيار الشوق القاتل، افعلي أي شيء، كل الخيارات أمامك متاحة، لكن لا تتركيني؛ فما لي على هجرك صبر!

رددها ببكاء حارق، يحاول الركض جاهدًا، خلف السيارة التي تطوي الأرض لتتخلص مما بداخلها، حتى انتهى به الحال يصل هناك، وقد قاموا بصب طبقات سميكة من الخرسانات حتى لا تتسرب العدوى، ولكن ماذا عن عدوى القلوب وأمراضها، هل يملك أحد التحكم بها؟!

أسرع كين محاولًا نبش الخرسانات الرطبة بكل قوته، فاجتذبه أحد رجال الأمن غاضبًا: أيها الأحمق، ماذا تفعل هنا، هل أنت مدرك لما تقوم به؟

ثم طرحه أرضًا واضعًا حواجز محيطة بالمكان. قام الفتى ينفض الثرى الذي امتزج بدمعه وثيابه صائحًا به: كيف لك أن تفرط بقلبي هكذا، هل استأذنت قبل أن تواريه التراب؟ أنا هنا لأطالب بقلبي، الذي جمدتموه سافلًا، أعيدوا قلبي إلي الآن.

أعيدوا رحيق حياتي، وربيع عمري، أعيدوا أنفاسي، أعيدوا بسمتي ومهجتي، أيها اللصوص لن أغفر لكم ما حييت. سأقاضيكم في محكمة القلوب التي لا تعرف الرحمة، سأعلق مشانق إعدامكم وأشدها بقدر ألمي الآن. أيها اللصوص لن تنجوا بفعلتكم هذا أبدًا... ثم خرَّ مغشيًّا عليه؛ فجلب له الجمع سيارة إسعاف لنقله إلى المشفى. أظهرت التقارير أنه غير مصاب بشيء مطلقًا، إنها حمى لا يعرف الطب دواءها؛ فهو لم يكشف بعد، الطب قد اهتدى للأوردة والشرايين والصمامات، ربما أسعفه الأمر بتركيب بعض الدعامات، إلا أن حمى القلوب تلك لا تداوى..

مكث زهاء أسبوعين لا يحرك ساكنًا، ليس مصابًا بشيء، لكنه يرفض الحياة.

بعد عدة أيام، استطاع كين استعادة ما يشبه الوعي، مرشدًا الأطباء إلى عنوان لم يتأكدوا من صحته، ولكنهم حملوه إليه على كل حال؛ فما يعاني منه الشاب لا دواء له بالنسبة إليهم، لقد ضخوا بداخله كمية من المهدئات من شأنها إخماد بركان ثائر، لكنه لا يزال على حاله يغمغم بين حين وآخر: سوكي، أنتِ بخير، لن أفرط بكِ ما حييت.

انتفض الكهل إثر وصول سيارة الإسعاف، يزخف بخطاه الواهنة، وعصاه المتأرجحة اضطرابًا. استقبل حفيده الشاحب. أعانه بعض من حضر وساعده للدخول إلى غرفته، ثم همس إلى الجد قائلًا: لقد حاولنا بشتى الطرق، لكن لا جدوى، أَحْضِر مستشارًا نفسيًا، وربما قد تحتاج إلى مشعوذ، فالفتى موشك على الجنون. ثم التفت إلى من معه مشيرًا بسرعة الرحيل، كما سحب الجد أقدامه الثقيلة إلى داخل المنزل. تطلع لرؤية الشاب من بعيد، ثم يمم نحو المطبخ لإعداد شراب مهديء، جلبه سريعًا وعاد إليه ليقول: اعلم يا بني أنهم لا يرحلون، نحن فقط من نأذن لهم بذلك. إنهم يحيون بداخلنا، يقطنون بحنايانا ونحن لا ندري. نحن فقط من نمنحهم خيار الرحيل عندما ننساهم، حين نقذفهم خارج وجداننا، ودائرة الاشتياق خاصتنا. هذه هي الميتة الحق، فليس هناك ما هو أشد ألمًا من موت أحدهم بداخلك وهو لا يزال في عالم البشر!

إن من يحيا بالداخل، لن يموت أبدًا...

ثم وضع الكوب على الطاولة الصغيرة بجانب الشاب مغادرًا الغرفة. التفت الشاب نحو الكوب، نظر إليه بفتور: نعناع! ماذا يفيد هذا النعناع، هل يخمد

نيران قلبي؟ أنا لا أريده، بل أريد قهوة داكنة بلا ذرة واحدة من السكر، فقد رحلت الفتاة بحلو أيامي كلها..

مرت الأيام، ولا زال كين على هيئته، صمت تام، سكون كتمثال نحت عن صورته، عين مغمضة ترفض الرؤية التي لم تُسْلبها، لكنها لم تعد ترى بها فائدة. مما دفع الجد لاستقدام طبيب نفسي، حاول الحديث مع الفتى ولكن دون جدوى، أعطاه كميات من المهدئات والعقاقير المنومة خليقة بأن تفقده ذاكرته، تسلل إلى أعمق أعماق عقله الباطني، ليستل تلك الذكرى الأليمة، ولكنها ليست ذكرى عابرة، يسهل خروجها، ليست ذكرى باهتة يهون محوها؛ فبعض الذكريات لا تخرج إلا بصحبة الأرواح..

بعد فترة يأس من مداواة الشاب، أشار على الجد بضرورة تغير المكان، ربما يخرج من كهف ذكرياته، ويعبر نفق أحزانه المظلم. وبعد عناء طويل استطاع الجد إقناع لي كين بالعودة أدراجه إلى شنجهاي من جديد..

كانت رياح الذكريات تعصف بالفتى كلما مر على زاوية جمعته بذكرى الفتاة، الطريق، الجسر، محطة القطار، القطار ذاته، كلها ملامح لصورة تعاد في بث مباشر يقدح ذهنه في كل ثانية، لكنه تسلى بمرور الوقت، والعودة إلى سابق عهده، تجاربه، زهوره، ربما أنساك. قالها بغصة حارقة، لكنها خلفت وميضًا خافتًا من راحة مسلوبة..

وبعد فترة وصل لي كين إلى رحاب تشنجهاي وحياتها المفعمة بالطاقة، ناطحات ساحبها، وأبراجها التي شقت الأفق، سياراتها، أناس هنا وهناك،

الكل يرفل في ركب العمل والتطور، وازدحام التقدم الخانق. وصل الشاب بخطى بطيئة إلى منزله، أكمل صعود الدرج بعد عناء طويل، تفحص حقيبته بحثًا عن مفتاحه الخاص، لكنه تذكر أنه ألقاه بأعماق اليانجستي برفقة هاتفه في أحد نوبات غضبه السابقة، طرق الباب وانتظر طويلًا حتى فتح له شخصا أثار دهشة لم يستطع إخفاءها فأطلق: أبي؟! أنت هنا، بالمنزل!

أومأ الوالد برأسه ونكسه أرضًا على الفور، ثم أشار بيده للداخل، فالوالد لم يعتد زيارة منزله سوى في العطلات الرسمية الهامة..

كان الوجه الذي لاح بوجه كين هو آخر من يتوقع أن يراه،

بعد بضع دقائق من الصمت، تنحنح الفتى وأردف بتردد: أبي، أين هي أمي؟

بادل الوالد سؤال ابنه الذي توقعه وأعد له مسبقًا الكثير بنظرة يائسة، تبعها صمم مطبق، وبإعادة الفتى الذى ظهر توتره، وبدأ الخوف يفوح من عيونه. استل الوالد كتلة من الهواء الهاربة في أرجاء المنزل، وأتبع بنبرة نادمة حزينة: إنها نائمة، بالداخل. لكن لا توقظها رجاءً؛ فلقد عانت الكثير في الفترة الماضية..

كانت هذه الكلمات على قِلَّتِها بمثابة انفجار هائل بالنسبة لكين، ما الذي تبدَّل يا ترى في فترة غيابي، هل تحدث المعجزات حقًا، منذ متى وهذا الإشفاق يتحرك تجاه والدتي، أو يتحرك أساسًا؟!

نظر الوالد لعيني كين التي كانت تدور ذهولًا مما سمعه، ثم تنهد قائلا: أعلم أن الأمر يبدو غريبًا بعض الشيء، لكن ما عصفت به أقدارنا في الفترة المتأخرة، كفيلة بأن تغير الكثير حقًا. اتسعت حدقتي الشاب وبدأت الحيرة تعلو محياه، فأضاف والده: بينما كنت في قمة نوبات غضبي المعهودة، وأثناء ثورتي العارمة، سقطت أرضًا، تَلَطّختْ ثيابي وأصابعي التي ألعنها بدم أيوكو، تصاعدت أنفاس الشاب وحدجه بعين غاضبة يود مبصرها لو عمى قبل ذلك، فما كان من والده إلا أن نكس رأسه باكيًا: لم أَعِ ما فعلت حقًا، لقد كنت أحمقًا أنانيًا، كان الحب تحت قدمي ولكن الغرور الذي مزقني، كان ينأى بي عن رؤيته، والغشاوة التي رانت على قلبي، حالت دون أن أشعر به، ولم العتبى على من فقد الحس والبصر! أنى له الإدراك يا بني؟!

لقد نُقِلْتُ إلى المشفى إثر نوبة قلبية، لكن ماذا قد تفعل نوبة بقلب ميت منذ سنين!

ماذا قد تفعل الشروخ، ما دامت القواعد متصدعة؟؟

وماذا يفيد السقف إن قوضت القواعد؟!!

ومع كل عبارة يزفرها الوالد بأنين محترق، كانت الدهشة تتملك قلب الفتى، وتبدي عينه كلمة واحدة، ثم أما بعد، بشغف، وتطلع، كظمآن يرى بئرًا بعيدة، كلما اقترب منها تبتعد..

أضاف لي تشانغ بعد تحدر الدمع على خديه، الدمع المختلط بلهيب الندم، الذي يأتي حارقًا، مؤرقًا، لكنه ريثما يعبر، فيعبر معه الكثير من الألم والتعب: وبعد إفاقتي من تلك النوبة، واطمئنان الأطباء على قلبي، دخل

طبيب يحمل بعض التقارير التي لا تبدو نذير خير، فهمس في أذن الطبيب الآخر: ابتعد قليلًا، لقد حدث ما كنت أخشاه، فهذا الرجل مصاب ب (كوفيد ١٩) لكن لا تظهر عليه أعراض المرض، وهو أمر قد يحدث، لذا يجب أن نحتاط كثيرًا لدى وصول المرضى، فالكل مصابون حتى تثبت صحتهم!!

بدأ الزعر يتسلل إلى داخلي، كورونا، هل ينتهي المطاف بي ميتًا إثر إصابتي بكورونا، أين قوتي، أين سطوتي، أين حراسي الشخصيين، لِمَ لَمْ يمنعوا عني الوباء؟!

لقد تخلوا عني، جميعهم، الكل هجرني، وخلفني وكبريائي، كأنني كنت قيدًا حول رقابهم، وانحلَّ على حين غرة مني!!

لكن الوحيدة التي ظلت بجانبي من أظنني لا أستحق ثانية واحدة من حيز تفكيرها، أيكو التي لحقت بي إلى المشفى، دون أن تنفض عن وجهها غبار أحزانها وآلامها التي لم تنقطع، لقد أفقت على عبراتها تنحدر على يدي، التي وددت لو أنها شلت قبل أن تلطمها، الوحيدة التي تمسكت بي، حين أفلت الجميع زمامي، أتذكر كيف سحبها الأطباء من جانبي، كمن يسلب أما صغيرها، بكت بحرقة على من لا يستحق مجرد شفقة عابرة، لطالما آذيتها، وعنفتها، وألقيت كل اللوم عليها، لقد كنت ضريرًا ألتمس الأرض بعصا حب زائف، بينما يحيطني نور اليقين من كل اتجاه!

لقد آمنت بي، وبشفائي، قطعت شهرين كاملين بانتظاري. ساندتني وأزرتني، لم تدخر وسعًا لإسعادي.. لطالما كانت حصني الأمين، وجندي المثابر، ودرعي المانع. لقد وهبتني ثلاث حياوات لم أستحق أيًا منها..

لطالما خذلتها، وخليتها وحيدة عزلاء في الميدان، لكنها كانت أبرع مقاتل عرفته يومًا، المقاتل الذي تدرع بالصبر، والتحف بالقين، وضمد جراحه بالأمل، وعالجها بالصدق، لقد كان صدق حبها، هو مفتاح قلبي الصدأ الذي تعفن في بئر الظلمات لسنوات. هو ما أزاح الران عن قلبي، واجتث الغشاوة عن عيني.. أعدك أنني سأعوض عن كل هجر، كل زجر، كل دمعة حارقة، كل نزفة مؤلمة، كل حماقة ارتكبتها بحقها. لقد حان جني ثمار غرسك التي طال انتظارها أيوكو، لقد جاهدت كثيرًا للحصول عليها ولكنكِ تستحقينها عن جدارة؟؟

أنهى لي تشانغ معزوفة ندمه واعتذاره ببكاء يشفي وإن كان لا يجدي، فالزمان الذي مر أبدًا لن يعود، واللحظات التي أضاع لن يحصلها مجددًا مهما سعى في ذلك..

أقبلت أيوكو تسير ببطء شديد، مرهقة بشدة، لا تكاد تفتح عينيها، أقبلت متسائلة بلهفة: هذا أنت، لي كين؟!

أسرع نحوها الفتى الذي لم تفتأ تقبله وتضمه تربت بيد حانية على ظهره، كأنها استعادت بصرها بعدما يئست منه، ثم سارت به نحو مكان جلوس والده، فأثار حاله قلبها، فسارت وجلست بجواره مهدئةً من روعه قائلة: ألم تقل ساجدة (بلاء أعظم من بلاء)؟!

الشكر للرب أن رد علي كين وأعاد نصف قلبي الضائع.

فالتفت نحوها كين: ماذا يعني حديثك هذا يا أمي، وأين ميكاتو، أعني عبد الله؟؟

نهضت أيكو من جلستها بجوار زوجها وجلست إلى جوار ولدها، ممسكة يديه بدفء يديها الحاني، ثم نظرت في عينه قائلة: لقد ذهب إلى حي (فان تاي) تحديدًا سوق (شين فادي)؛ لإحضار بعض الأغراض الهامة، وإثر عودته أصيب بإعياء بالغ نقل على إثره للمشفى، ثم كتمت غصة في صدرها وانفجرت كسيل في البكاء: لقد كان أملنا كبير، لكن الأقدار كانت أسبق.. وألقت بنفسها بين ذراعي ولدها التي طالما وجدت منهما ملاذًا آمنًا.

ذرف الجميع العبرات لساعات طويلة، يتذكرون خلالها عبد الله؛ هدوءه، طيبته، إخلاصه، الفراغ الذي خلفه وراءه، الوخزة بقلب أيكو تنازعها في كل حين، العطية التي بدا لي تشانج جاحدًا لها، لقد عد لي تشانج وفاة عبد الله بمثابة الصفعة التي أعادت إليه عقله واتزانه، لكن أثرها سيظل ينزف بداخل هذا البيت وللأبد؛ فكل فقد في هذه الدنيا يعوض، إلا إذا كان المفقود هو القلب الذي حاز رمق الحياة!

غادر لي كين جلسة الأحزان إلى غرفته، وهنا استل عقله سيفه؛ التفكير القاتل فيمن نفتقد، بالأمس الفتاة، واليوم عبد الله. ماذا فعلت لأستحق كل هذا؟

أي ذنب قد اقترفت دون أن أدري؟

لم كل شيء موشح بالسواد في وجهي؟

ألا تنقضي ظلمات ليلي قط؟؟

هل أنا من عقدت معي سوء الحظ عقدًا بلا شرط، أو قيد، أو وقت؟؟

ألا فلتحل اللعنة على العشق، على كل العاشقين، على كل من يجول بخاطره أن يفكر في الأمر حتى.

إنه خطيئتي التي لن أبرأ منها ما حييت، ألا ما أشبه هذا الحب بالكورونا، كلا بل هو أفتك!

يصيبك على حين غفلة منك، يباغتك، حتى يتسلل إلى داخل أعماقك، حتى إذا غطى شغاف قلبك؛ يعلمك بوجوده، وهذا ليس خيارًا، بل هو مجرد إجراء روتيني بحت، لقد وقعت بشباكي أيها الأحمق، شئت أم أبيت!

ثم ينقض على أضعف نقطة بحناياك، فينخرها على مهل، كل يوم يذهب ببعض أنفاسك، حتى إذا صرت فريسة مستحيلة النجاة، ينقض عليك فيبتلعك في بحر أحزانه وأشجانه، ويظل يغلي كاللظى بداخلك؛ حتى يخليك، كرماد اشتد به الريح في يوم عاصف، كأنك السراب أو الضباب أو أي شيء لا يرى.

ألا فليهلك كل العاشقين، فلتذهبي يا سوكي مع حبكِ لأسفل دركات الجحيم، لتبيدي، وتفني، وتتبدد ذكراكِ بداخلي، لست أعرف إلهًا لأقسم به، ولا أدري إذا كنت سأفعل، لكنني سأنتزع كل شعور لكِ بداخلي، حتى لو تركتني كذرة منشطرة إلى آلاف الجزيئات، لا تحلمي أن تطأ قدمكِ شريط ذكرياتي العابرة، حتى أنني لن أنام؛ حتى لا تطرقي أحلامي!

وريثما أنهى خطبته التحفيزية المدوية، ذهب إلى المطبخ، وقام بإعداد كميات هائلة من القهوة الداكنة غير المحلاة؛ حتى لا يغلبه النعاس، ويرى الفتاة التي كان عازمًا على نسيانها بأحلامه. لقد احتسى كميات من القهوة، كانت كفيلة بإيقاظ الصين وإن شئت لك أن تقول الكوكب بأكمله، مرت ثلاثة أيام، وهو على ذات حاله، يردد الوعود والمواثيق، ويحتسي القهوة والمنبهات، ولكن كثيرًا من أحلامنا تهرب من محيط باطننا إلى الواقع، فتستوي خلالها اليقظة والمنام. بدأ الفتى يراها في كل زاوية بالغرفة، بالخارج خلف زجاج النافذة، على مكتبه، في دفتر ملاحظاته، على صفحة قهوته، كانت حاله لا تتجاوز قول القائل:

كُلّمَا مَرّتْ عَلَيْه اللّيَالي رَقّ** والْعَهْدُ فِي اللّيَالِي تُقَسِي

فما كان منه إلا أن عقد عزمًا آخر بهجر منزله، وكل ذكرى قد تجمعها معه من جديد، فجمع ما أوتي من جوائزه وإنجازاته؛ لتعيد إليه نفسه القديمة التي قضى بأنه أضاعها، وبعض الصور برفقة عائلته، والكتاب الذي أهدته إياه؛ حتى يقطع البراهين بكذب سعادتها، وأن كل ما رأى من تلك الفتاة محض اصطناع زائف، سأثبت اليوم بالتجربة الناجعة أنك سراب، سيتلاشى مع ضوء شمس الساطعة!

قالها بكل ثقة، ثم ألقى نظرة وداع أخيرة لم يرَ بها ضير. تقدم نحو باب المنزل، لكن استوقفه صوت بكاء أيوكو ونحيبها العالي، لكن ثمة صوت آخر يشاركها البكاء... "من هو؟ نحن لا نستقبل أعضاء العائلة في هذا المنزل، فهل نستقبل الغرباء؟"

قاد الفتى فضوله نحو الغرفة. طرق الباب، فأذنت له أيكو بصوتها الباكي، دخل ليجد وجها آخر، لم يكن ليخطر بباله حتى، إنها ساجدة!

حدقها بنظرة حانقة كتمت بداخلها أي سؤال قد يجول بخاطرها أن تسأله، كان الشرر المتطاير من عينه لا يشي سوى بشيء واحد: فلتحل عليكم نيران العذاب جمعاء. التفت الشاب نحو أمه، وسألها بنبرة ساخرة بعض الشيء: هل لك من حاجة أجلبها إليك من الصين؟

نظرت إليه متسائلة: الصين!

_ نعم، فأنا أنوي أن أسير حيث تحملني قدماي، إلى أية وجهة، وكنت أسألك في حال عدت إلى هنا يومًا ما، لست على يقين في الوقت الحالي، ولكن ربما، لم لا؟

حدتْ تلك العبارات نيران الحزن بقلب أيكو من جديد، راحت تتوسل إليه بكل ذكرى لهما معًا، بكل مرة وقفت بجانبه، بكل أمل زرعه بداخلها، لكن كل محاولاتها باءت بالفشل، فألقى عليها نظرة وداع أخيرة ثم غادر المنزل.

غادره للمرة الأولى التي لا يعلن بها عودته، ولا يهتدي إلى وجهته، هائم كأشباح الظلام الدامس، وماذا قد يصنع العشق غير ذلك؟

إنها نسب موزونة، ومقادير محددة، إذا حدث بينها خلل، فلا بد أن تفضي بصاحبها إلى الهلاك. إن القلب الذي لا يحسن ترتيب أجناس حبه؛ لا بد أن يحترق كمدًا بالنهاية!

وحده فقط الحب الأعظم الذي ينجي من المهالك، يهدي في أحلك ليالي الحيرة، يطمئن في أقسى أوقات الشدة، يشفي وإن عظم الألم!

الحب الذي لو سكن؛ لهان كل حب دونه، وعاش حامله بمنأى عن الأسقام الموجعة، وآلام العشق المفجعة!

ولكن أنى السبيل إلى ذلك القلب الذي حجد كل شيء؟!

وقف كين يراقب أمواج (هوانجبو) تقدحها الشمس، كسابك ذهبية ذائبة، لم يشعر بقدميه حين قادته إلى (منتزه تشونج تشان) الذي يقع بمحاذاة جادة بوند على امتداد النهر، وهناك جلس يفكر بالعام الذي مضى، والعام الذي كاد ينقضي هو الآخر، وما بين العامين من ذكريات، وأوقات يعدها قد سلبت من عمره دون أن يدري، ثم انتبه إلى مكان جلوسه، فسارع بالمغادرة، وهو يردد: "لست أنا ممن تأسره هذه الطبيعة، إنها خلقت للعشاق، وبالطبع لست منهم!

لقد علمت أين ستكون وجهتي الأولى، اليوم سأرديكِ، وأواري ذكراكِ الثرى، ولن تحضري في هامش الذكريات حتى بعد الآن، ثم قطع تذكرة سفر نحو الشمال الغربي، بالتحديد إلى مقاطعة (شنشي)، قضى في خلال هذه الرحلة أربع عشرة ساعة بالقطار، كان من الممكن اختصارها إلى الخمس ساعات بالطائرة، لكن الوقت لم يعد يمثل إليه أية أهمية، وماذا إذا كان سيمضي، فليمضي، ما الضير في ذلك، كلمات كان يسر بها كين لنفسه لدى صعوده على متن القطار، الذي توهم أنه سيأخذه نحو النجاة من قيد الذكريات..

تتابعت المحطات، وصل القطار إلى المحطة المنشودة، فتناول الشاب حقيبته واستأجر سيارة لتوصله (شيان)، لتوصله إلى أحد عجائب الدنيا (جيش تيركوتا الصيني)

وصل الفتى إلى المتحف الضخم، فوقف مفتونًا بالإبداع والإتقان منقطع النظير. ثمانية آلاف جندي لا يلتقي فيها وجهان شبهًا، ما يقرب من ألف حصان، بجميع تفاصيلها الدقيقة، كل عضلة منها تضج بالحياة. الحياة اليومية بما فيها من أواني، ومعازف، وعمال. "كل هذا أردت اصطحابه (كين شي)، اصطحابه نحو الخلود، دفنت حياة بأكملها إلى جوار قبرك، لكنني اليوم سأدفن حبي لك سوكي، سأحرق كل ذكرياتك كما احترقت هذه التماثيل حتى استحالت صلصالًا على هذه الحال، ولكن أكثر بحيث تصبحين رماد، سأنثره في شتى البقاع التي التقيتكِ بها، حتى تتحرر روحي من قيد حبكِ، سأنحت ذكراكِ من زجاج رقيق، حتى يتسنى لي سحقها لآلاف الذرات، التي لن تعود، حتى وإن عادت فلن تعود إلى عهدها المنصرم أبدًا. كين شي شيد للخلود، واليوم أروم الفناء بكل معانيه، الفناء الذي يخلفه إعادة حياتي، ثم التقط شهيقًا طويلًا، زفره بحنق بالغ، ثم غادر المكان..

أخرج الشاب هاتفه، ألقى نظرة على التاريخ الحالي، ثم دسه في جيبه قائلًا: نعم، أنا صاحب الهندسة الوراثية، والقلب الممزق العاني، ليتني درست الهندسة المعمارية، بذات النبرة الساخرة التي أصبحت مصاحبة لجل ما يتحدث به، عازمًا على اللحاق بوجهته التالية بأقصى سرعة.

بعد فترة طويلة استطاع كين الوصول إلى أقصى الغرب تحديدًا (جاوتاي) القابعة في مقاطعة (جوانسو)، وقف الفتى يطالع الجبال الموشاة بحلة زبرجدية ساحرة. الأشعة القرمزية تخالط الحجارة الشاهقة. ترسم فوقها لوحة الإبداع والسحر، تفيض جمالًا، وهيبة. الهيكل العملاق الذي شيده أسلافه ليطوق بلاده؛ حماية لها من الغزو. أحد أساطير الدنيا وعجائبها، الذي يشق الأخضر على جانبيه في حسن آسر، وجمال باهر. استدار كين في المكان، ثم هبط عن الدرج يطالع المكان بالأسفل، بدا المكان مختلفًا، والمشهد جديدًا، كل شيء لا يبدو كسابق عهده بالهيكل الذي زاره عدة مرات مضت. لكن حقيقة الأمر أن كين هو من اختلف، واختلفت نفسه ونظرته للأشياء، نحن من نتبدل، ويتبدل معنا ما نبصره!

مشى الشاب نحو أحد أبراج المراقبة، نظر عبر الفرجة الصغيرة المخصصة للرؤية، ليتني أحكمت حصوني كما فعلوا، ليتني شيدت قلاعي وأبراجي على نحو منيع، اليوم سأعيد هيكلة دفاعي، سأنظم صفوفي، سأكون كين الذي لا يقهر، ولا يأسر بقيد الحب، فليتحول هذا القلب، كتلك الحجارة الصماء، ولتحكم حصونه، وتعلو أبراج مراقبته، ليطوق بأسلاك شائكة تمزق كل من يحاول عبورها، وبينما يردد الفتى مواثيقه، أثناء سيره بطول الهيكل العملاق، إذ يصطدم بأحد المارة بجواره، التفت كين يزفر الغضب: هلا.. ثم حبس أنفاسه، وانقطع عن الحديث، لتعود ذاكرته، إلى عهد مضى، العهد الذي يفتقده كين، يطوق لو استلب بعض لحظاته من الزمن المنصرم. تبدلت ملامحه الغاضبة، وراح يبتسم بحبور بهذا الوجه

الذي اشتاق ملامحه، حتى وإن بدت متغيرة بعض الشئ، فبادره بحماس: ميساكا! أين كنت؟

لقد اشتقت لك كثيرًا، حتى أنني ذهبت إلى مدينتك للبحث عنك، فلم أجد لها أثرًا، هل كنت خارج البلاد؟

وقف الشاب مقطبًا حاجبيه مذهولًا مما يسمع، ثم انتفض فجأة: لي كيين! هذا أنت؟!

_ لقد تغيرت كثيرًا..

ربت لي على كتفه برفق: تقول هكذا، وكأنك لم تفعل، كيف الحال يا رفيقي؟

ابتسم الشاب ابتسامة واسعة أردفها بقوله الذي كانت تفيض معناه بعينيه: الحمد لله. وكأن الرضا يتفجر ينابيعًا مع تلك الكلمات.

بادله كين بنظرة يشوبها الدهشة: ميساكا، هل أنت على ما يرام؟؟

فابتسم الشاب بوجهه: نعم، على أفضل مما يرام.

_ اضطرب لي كين قليلًا، قائلًا: تلك الابتسامة، بهدوئها، وصفائها. هذا الرضا الذي يعلو ملامحك، ميساكا، هل اعتنقت الإسلام؟؟

أومأ الشاب برأسه إيجابًا وأردف: الحمد لله على نعمة الإسلام.

رفع لي كين حاجبيه: ومنذ متى؟

_ من فترة طويلة، ربما سبع سنوات، أثناء قيامي بمؤتمر ترويجي لأحد ماركات الهاتف الجوال الجديدة التي كانت تصدرها الشركة التي كنت

أعمل بها. كانت فترة عصيبة في حياتي، اكتشفت خيانة من كانت زوجتي سابقًا، وشعرت باحتراق داخلي يوميًا، فلما عرضوا عليَّ أمر السفر، استجبت على الفور، كنت أعتقد أن هذا سيغير داخلي، ويذهب عني بعض همومي، لذا سافرت، ومكثت ثلاثة أيام بتلك البلد قبل العرض. أحسست ببعض الراحة، وبدأت أنسى ما قد حدث. حل يوم العرض، وحققت الشركة نجاح باهر، حان وقت العودة، لكنني لم أرغب بذلك، مددت إقامتي، وطلبت إجازة، فوافقت عليها الشركة، أمضيت أسبوعًا كاملًا لا أقوم سوى بشيء واحد، الاستماع للآذان، تلك النغمات التي دبت بأعماقي، فأزالت ما بها من حزن وكمد، كانت المرة الأولى حين سمعته بوقت متأخر من الليل، كنت مستيقظًا أدافع الأحزان، لكنه أثار سمعي، وظلت أنغامه تتردد بداخلي لفترة طويلة. عزمت على انتظاره لليوم التالي، لكنني تفاجأت بصدوره خمس مرات يوميًا، فقررت اتباع ذلك الصوت، وسألت الموظف بالفندق الذي نزلت به فأرشدني إلى مكانه. وصلت إلى المكان الموسوم. وقفت أراقب من بعيد، الجموع تتهافت إلى الداخل، بناء يفيض بالجمال الآسر، قباب بيضاء عالية، مآذن رخامية قد شقت الأفق، تسللت بين تلك الجموع، وجدتني في مكان هادىء، يضج بالسكينة والراحة، أحدهم يرتل كلمات هادئة تشعرك بالسكينة، البعض راكعًا، والآخر ساجدًا. ثم بعد بضعة دقائق، وقف أحدهم، وردد نداء يشبه النداء الأول؛ فإذا بالجمع الغفير يصطفون في تناسق فريد، لا تسبق قدم الأخرى، الجميع على ذات الحال، الكهل والصغير، الغني والفقير، الكل في مقام

واحد، ظللت أراقب وأطالع ما يجري، حتى ألقى علي أحدهم التحية بالإنجليزية، مبتسمًا بوجهي، ثم أضاف: لم لا تصلي؟

عندها ارتجف قلبي، وغادرت المكان مسرعًا، كانت هناك عدة مشاعر تتصارع بداخلي، الخوف، السعادة، الفضول، لكن الشعور الوحيد الذي كنت متأكدًا منه هو السكينة والراحة التي تسربت إلى نفسي خلال تلك الدقائق، السلام الذي يجمع كل هذه الجموع على اختلافها، الهدوء الذي يكللهم، والابتسامة النقية التي تعلو محياهم، خرجت وأنا لا أفكر سوى في شيء واحد (مرحبًا أخي، لم لا تصلي؟)

هل كل مسلم هو أخ يا ترى، كانت المرة الأولى التي التقي بها مسلم عن قرب، أسمع بها الأذان مصغيًا، أشاهد المسجد والصلاة. عدت أدراجي إلى الفندق، عكفت على القراءة عن الإسلام، ونبي المسلمين -صلى الله عليه وسلم- قرأت مواقف وأحداث، تشع بالقيم الإنسانية التي من شأنها إصلاح البشر كلهم، قرأت وقرأت حتى بدأ اليقين يطرق بابي، والشك يغادر صدري. تزامن هذا مع موعد المعرض الدولي للكتاب، فقلت ولم لا؟

ربما وجدت هناك من الكتب أو المترجمات ما يجلي عن وجهتي. وبالفعل ذهبت في اليوم التالي، كان المكان رائعًا بكل معنى للكلمة، مساحة شاسعة، بوابة ضخمة يوجد عليها أفراد من الأمن، وما إن تجاوز هذا المكان حتى ترى السحر بعينه، حديقة خضراء يزدان بها المكان، مطاعم متنقلة بشتى أنواع الطعام والمشروبات، ثم صروح عملاقة، كل منها يضم

عدة أروقة تكاد تشبه المتاهة لضخامتها وكبر مساحتها، لكنها على الرغم من ذلك كانت تحمل قدرًا عاليًا من النظام والدقة، مقسمة في تناغم تام، تجولت قليلًا في الأرجاء حتى قادتني قدماي نحو جناح كبير، وجدت به بعض المخطوطات القديمة، الصور لرموز دينية كالكعبة والمسجد النبوي، كل من يطرقه يحمل ذات السمت الهاديء الرقيق المبتسم. لاحت بوجهي فتاة تحمل الكثير من طلتنا، لم أتردد للحظة سرت باتجاهها لأسألها عن المساعدة، فأجابت على استحياء دون أن ترفع ناظريها: انتظر، سأحضر أخي.

"أخي، هل كلكم أخوة يا فتاة"، وبعد لحظة جاء أخوها بالفعل، قدمت إليه نفسي، ووافق على مساعدتي على الفور. لقد كان من جميل قدري أن كنت حينها في جناح الأزهر الشريف، الذي ملأ الدنيا نورًا وعلمًا. وبعد عدة أيام اعتنقت الإسلام بعدما هدأتُ وخمدتْ كل شكوكي، وتحولت إلى اليقين. تقدمت لخطبة الفتاة التي أثارت إعجابي، وبمرور الوقت صارت أحب الأشخاص إلى قلبي، لقد سارت بي نحو اليقين، والسلام، والهدوء، تزوجنا، ورزقنا بفتاتين، هما من ترى هناك، سارة، مريم.

كل هذا والفتى يحملق، لا يكاد يصدق ما تسمعه أذناه، ولكنه أضاف سائلًا:

وهل كان إمضاء تلك الفترة يسيرًا بالنسبة إليك؟

تنهد الشاب وابتسم قائلًا: إن لذة الوصول تقاس تحمل كثيرًا من مشقة المسير، وهل هناك نحاج بلا جهد، راحة بلا تعب، هدوء بلا اضطراب!!

ثم أردف قائلًا: لقد نسيت أن أخبرك أنا اليوم حمزة.

ثم ابتسم يهم بالرحيل قائلًا: أراك في محطات يقينك لي كين، فالاضطراب الذي يتأجج داخلك أعز من أن يواري، أتمنى لك سلامة الوصول. ثم التفت كل منهما قاصدًا اتجاهًا معاكسًا.. فتبدت الحسناء بوجه لي كين ترفل في ثوب زبرجدي فضفاض، تفيض بالبهاء والحسن كديدنها، تشع سماحة، يتمازج مع البرجدي الذي يكسو المكان، قام كين بفتح عينه وإغلاقها عدة مرات؛ ليتحقق مما يراه، "لا بد أنني أتوهم، كما فعلت بالقطار، وبالمرات السابقة، إياك أن تقترب لي كين، حتى لا تتعرض لإحراج جديد"، وأسرع بالرحيل، تحدثه نفسه بحديثه مع رفيقه السابق، والطيف الذي يحسب أنه بدى بوجهه، حاول أن يستل لحظة من انتباهه قائلا: الآن، لن يكلفني أمري عناء اختيار الوجهة القادمة، لقد علمت أين السبيل!

سأذهب إلى (غابة أوسمانثوس الحلوة)

وأستقل قطار نحو الجنوب، تحديدًا إلى (قوانشي)، وعلى الرغم من بعد المسافة، وطول المدة، إلا أن كين لم يشعر بها مطلقًا؛ لانغماسه مفكرًا في الحديث الذي دار بينه وبين حمزة، يبدو حمزة سعيدًا، هادئًا، مطمئنًا، هذا هو ما كنت أبحث عنه بداخل الفتاة، ما كنت أظنه سرًا خاصًا بها، لكنه يبدو ترياقًا يسير في دماء المسلمين، هل حقًا أستطيع الوصول إلى اليقين؟

هل تطفو تلك النيران على السطح، وتخفت حتى لا يكن لها وجود؟

هل أحببت الفتاة، أم جذبني يقينها؟

أعلم أنها كانت تحبني، لكنها لم تحاول الإفصاح عن ذلك ولو لمرة واحدة، فلم؟

ثم جذب أجفانه النعاس، التي لم تفتح حتى وصل إلى وجهته المقصودة (شمال قوانشي)، إلى أجمل ما يقع تحت السماء، إلى المدينة التي حازت من الجمال أفنانًا، ومن السحر ألوانًا، إلى جنان الصين الوارفة (قولين) التي يجتمع بها مزيج فريد باهر ساحر من الجمال، جبال كاريستية مزهوة بالزبرجد اليانع، تلال تكتسي الجمال أثوابًا، نهر لي الذي يتلألأ مع الشمس في كل وقت وحين، أشجار أوسمانثوس الحلوة التي تعبق المكان بشذاها، القرى الزراعية المنثورة على طول السهول المنبسطة هنا وهناك، جمال يشع بالسحر، يأخذ بلب مبصره منذ الوهلة الأولى، إحدى قطع الجنان على وجه البسيطة، عبّق كين رئتيه ببعض الرحيق، ثم سار باتجاه النهر، كانت الشمس قد أرسلت بعض أطرافها القرمزية الخافتة، يتوزع بالنهر القوارب الصغيرة، يحمل راكبيها مشاعلًا أرجوانية مضيئة، تنهد كين بعمق مردفًا: هنا يكمن السحر، وحتمًا سأصل إلى اليقين بهذه الرياض والمروج الخضراء، ثم افترش الأرض يراقب الأفق الفسيح، حتى حل الليل، وغشى بظلمته هذا الحسن الباهر، فقرر كين الذهاب للبحث عن فندق ينزل به مدة إقامته التي لا يعلم قدرها تحديدًا...

في الصباح التالي، استيقظ لي كين، مع أول سهام ترسلها الهالة المضيئة، تداعب الجبال التي تعانق القبة الزرقاء، تتسلل فيما بينها، لتمازح صفحة الذهب الخالص بنهر لي، سار كين باتجاه النهر، افترش الثرى على هيئة

القرفصاء، وأخذ يستنشق الجمال الآسر، يفكر في أعماقه، ترى ما هي ماهية الإنسان في هذه الحياة؟!

هل وجدنا لنلهث ونركض خلف العمل فقط؟!

إذا كان الأمر هكذا، فلم لسنا آلات، أو روبوتات؟

وإذا خلقنا للراحة التامة، لم لسنا أنهارًا، أو أشجارًا، أو غيومًا؟!

أعتقد أننا خلقنا لصنع نوع من التوازن في كل شيء، الراحة والتعب، السعادة والحزن، العمل، النجاح والفشل، إنها ديناميكية غريبة، قد تآلف بها هذا الكون، وسطرتها الطبيعة، وبما أننا المخلوقات الوحيدة التي تعقل على وجه الأرض، إذا هذا وجود له سبب، لا بد أن يكون كذلك، فهذا الذي أراه الآن محال أن يعكس العبث أبدًا. هل يمكن إذا حققت تلك الغاية أن أصل إلى اليقين؟

ربما هو مفتاحي نحو السعادة والراحة والصفاء الروحي، ثم صمت لوهلة متبعًا، أم أنني أخدع نفسي؛ لأهرب من واقعي؟

وبينما هو على تلك الحال من تصارع الأفكار، كدوامة تبتلع كل من يقترب منها، إذ مر بجواره شاب، يردد بصوت شجي مرنم، بعض الكلمات التي أخذت بلب كين، فقام يتبعه، حتى ردد عبارة أيقظت كين من سباته العميق، واستلته من بئر الشك الذي كان يساروه، إنها آخر ما قاله حمزة، وما كانت تردد الفتاة مرارًا، لا بد أن هذه فرصتي للنجاة، أسرع الخطى من خلف الشاب مرددًا: معذرة، هل يمكنك إجابتي على سؤال ما؟

التفت الشاب نحوه، باسم المحيا، كتلك الابتسامة التي كانت بمثابة كلمة السر بين كل الوجوه الهادئة التي صادفها من قبل، فبادله كين الابتسامة مردفًا: ما هذه العبارة التي كنت تردد قبل قليل؟

تهلل وجه الشاب مجيبًا: إنها آيات، وهي تطلق على سور القرآن الكريم. وقبل أن يسأل ما هو القرآن الكريم، أضاف الشاب: إنه الكتاب المقدس الخاص بالمسلمي.، ثم شرح له معنى الآيات، والسورة التي وردت بها، والقصة التي كانت تحكيها تلك السورة، فابتسم كين قائلًا: إن الذي تقوله الآن هو شيء خارق للعادة، وكيف لشخص أن يعود من الموت بهذه الطريقة؟

وكيف يستعيد حياته من رفات العدم؟

غربة، هجر، موت، سجن، ثم ملك؟! إن هذا لشيء عظيم.

بادله الشاب بنظرة يكللها الرضا والفخر مردفًا: السر وراء هذا كله... ثم تلى عليه الآية التي بدأت تلتصق بجدار قلبه، وتعلق نغماتها بأذنه. شكر الشاب على طيب خاطره، ثم انصرف كل منهما نحو وجهته. فراح لي كين يفكر بداخله، أين لاح ذلك العنوان بوجهه من قبل، فليست المرة الأولى التي يطأ هذا الاسم خانة عقله، وبعد دقائق من عصفه لذهنه، تذكر أثناء فركه لجبهته قائلًا: نعم، إنه الإهداء الوحيد الذي خلفته سوكي من ورائها، فقرر العودة سريعًا إلى الفندق، وأقام معسكرًا مغلقًا لقراءة الكتاب، ومحاولة استحضار القصة ومعانيها. وريثما هم بإنهاء القراءة، وجد بالصفحة الأخيرة إهداء قد خُطّ بمداد فيروزي لامع تقول صاحبته: أعلم

أنك كنت سببًا في إنقاذ روحي لمرتين على التوالي، فشكرًا لك، لكنني أتمنى أن أكون سببًا في تحرير روحك وإنقاذها إلى الأبد، وكسر قيد الشك عنها... لعل هذه الوريقات على قلتها تكون بداية لطوق نجاتك، أتمنى أن تصل إلى اليقين؛ لنلتقي على عتباته..

لم يتمالك كين العبرات التي تحدرت على خديه، حارقة، ملهبة، تزيد الغصة بصدره، والألم بقلبه، وضع يده يضغط بها على صدره بشدة، كأنما يقوم بدعم قلبه المتهالك كمدًا، وهل تركت لي خيارًا باللقاء أو حتى الوداع؟ لقد تسللت خفية دون أن تنظري من خلفك ولو لمرة واحدة فقط، أتمنى لو أنك الآن تسمعينني أو تشعرين بي، علك أرشدتني إلى اليقين، ثم اتجه إلى حقيبته فأخرج من بين محتوياتها قرصًا مدمجًا، يحمل ذات العنوان الذي يشير إليه الكتاب، فوضعه بحاسوبه المحمول، وأخذ يسمع بهدوء، يستشعر سحائب الصفاء التي عمت أجزاء روحه، والسلام الذي سرى لبقية جوارحه، أغمض عينه، واستسلم للطمأنينة والسكينة، حتى انتهت الآيات، التي اهتدى إلى معناها مسبقًا، فخرَّ باكيًا يسأل الهداية واليقين. سألها بكل صدق، وإخلاص موشى بالرجاء الصادق، ثم أمضى نحو شهر كامل، يستمع إلى سور القرآن الكريم، فتهب عليه أنسام السكينة التي بدأ حبها يستقر بقلبه شيئًا فشيئًا، حتى بدلت قتامته ضياءً، وشقائه تعبا، واضطرابه راحة وطمأنينة. خرج إلى الظلال الوارفة. يتابع الغروب على ضفاف (لي دونج)، استشعر توافق الجبل والسهل والوادي، وتناغم النهر والأفق، وتناسق الزبرجد الذي يعم الأرجاء، استنشق عبير الصفاء، وزفره بهدوء مردفًا: ما أبدع خالق هذا الشعور، ومغير مقادير البشر! اليوم سأترك

هذه البقعة الآسرة جمالًا؛ لتحرير روحي من الأسر، شكرًا قولين، وشكرًا لك خالق الكون الجميل!

ثم ارتحل كين إلى مكان لم يجول بخاطره قط، ارتحل نحو شمالي غرب الصين، إلى مقاطعة (نينج شيا) الهضبة التي يتدفق عبرها النهر الأصفر، كما تدفق عبرها نور، وهداية الإسلام إلى شتى بقاع الصين الوارفة. توجه الشاب إلى الأرض التي شق طريق الحرير جنح ليلها الدامس، وأزاح ستار الظلام عن أعين قاطنيها قديمًا؛ فكانت أحد روافد نشر الإسلام قديمًا، ولا زالت فخر مسلمي الصين إلى اليوم. إنها البقاع الصحراوية التي حولها ماء الإيمان، وشمس اليقين الساطعة، وتربة الصبر المثمرة، إلى واحدة من أهم مدن الصين اقتصاديا. قومية (خوي) التي جمعت بين الدين والعمل، فحازت نهضة منقطعة النظير. طوى كين المسافة الطويلة يفكر في حياة المسلمين، كيف سيبدو مجتمع المسلمين عن كثب، لقد قابل البعض منهم مثنى وفرادى، لكن مدينة بأكملها أمر مختلف تمامًا، فلا بد أن أنوار اليقين ستلوح في أفقي بتلك الرحاب الآمنة، والربع المطمئنة، ثم أخرج هاتفه لسماع بعض الآيات التي أصبحت بمثابة البلسم الروحي الذي يصعب التخلي عنه، فاطمئن قلبه، واستسلمت جفونه للنعاس الهادىء، حتى حان موعد الوصول، فشق سمعه ما صدحت به إحدى المآذن، ليحرك حنينا بداخله، لم يستطع السيطرة عليه، فهب من فوره مترجلًا عن الحافلة، متبعًا ذلك الصوت الشجي، الذي يضيء المكان على الرغم من حلول الليل، دخل إلى المسجد مصاحبًا لجموع المصلين، فانخلع قلبه من الوقار الذي يعم رحاب مسجد (نان قوان) الذي يقع بالقرب من شارع

(يونجيه) الشهير بمطاعمه التي تقدم طعامًا حلالًا متوافقًا مع مواصفات الشريعة الإسلامية.

على مساحة كبيرة من الأرض يهيمن الوقار، ليفيض بالسحر النابض، والجمال المشع بريقًا، بناء أبيض جميل، يوشيه الأخضر الزبرجدي، مع نقوش ذهبية آسرة. تجلس قبة خضراء رائعة، تحمل فوقها، هلالًا لجينيًا يعلن للسماء أن هنا يقطن مسلمون، هنا أرض السلام، تؤزرها قبتان صغيرتان بجانبها، وأربعة أخري صغيرة تحاوطها بلونها الذهبي الساطع، وقد نقش بالذهب على المدخل تحت هذه القباب بأحرف عربية باهرة (مسجد نان قوان بمدينة ينشوان)، كوسام فخر يزدان به كل مسلم، وهو العربية، التي كرمها الله لغة لكتابه الكريم. وما إن جاوز المدخل، حتى تملكه الذهول لروعة الفناء الذي رصفت جوانبه الأشجار والزهور، وتوسطته نافورة بلون أبيض مع نقوش زرقاء زاهية فكانت آية في الحسن والإبداع، ثم انتهى إلى المسجد الذي حمل من فوقه قبة خضراء تؤازرها ساريتان يعلوهما الأبيض المخضب بالفيروزي الساطع ينتهيان إلى قبتين صغيرتين تناطحان الأفق.

دلف الشاب إلى الداخل بين جموع المصلين، استشعر هيبة ووقارًا لم يسعها صدره، جلس في تلك الرحاب الطاهرة، كظمآن بلغ به العطش حد الصدى، اصطف الجمع مُلبيين النداء القدسي، انزوى لي كين يراقب الوقار والسماحة تفيض عيونًا من تلك الأوجه السمحة، حتى انتهى الجميع من الصلاة، فأقبل نحوه كهل مبتسمًا: أهلًا بك يا بني، اليوم هو وليمة عرس ابني سفيان وأنت مدعو للطعام، وتعلم أن الإجابة واجبة.

انكمشت ملامح كين ونكس رأسه خجلًا، يحاول سحب ذراعه بهدوء من أيدي العجوز: أنا.. في الحقيقة لست مسلمًا، رددها بصوت خافت.

_ وما الضير في ذلك إذًا؟

فأشار كين بالإجابة، استقبله الجمع بحبور وترحاب، لم يميزوا بينه وبينهم مدعويهم، زينوا أمامه سفرة بأشهى الأطعمة والحلويات من خبز (يوشيان) ومخبوزات (سانزي) وطبق (شوتشوا) الذي يعد طعامًا رئيسيًا لديهم، كذلك قدموا الفاكهة الطازجة، وشاي (باباو) الشهير لديهم.

شعر كين بالامتنان تجاه هذه الدعوة الكريمة، فهو لم يشعر بمثل تلك الأجواء العائلية من قبل، حتى اجتماعه بأهله لم يحمل هذا القدر من الاحتفاء!

بعد انتهاء الوليمة، حرص على شكر العجوز الذي أمسك بيده فاستشعر منهما دفء السلام، وربت قائلًا: متى استوحشت في أي وقت، فلتطرق هذه الرحاب، هناك ضوء دائم في طريق من يبحث عنه، فقط عليك بالمحاولة. ثم أومأ كين برأسه تحية للجمع مغادرًا المكان. هذه الراحة التي أرنو إليها، والسكينة التي أرومها، والصفاء الذي أنشده، إن هذه الأضواء هي أول ما صادف قلبي حين نزلت بهذه الرحاب (بلدة قومية هوي). مكث الشاب أسبوعًا كاملًا يتردد على رحاب المسجد يوميًا، يرى من سماحة المسلمين ما أزال الران عن قلبه، وحوله من لي كين إلى (يوسف).

مكث يوسف في تلك الرحاب زهاء ثلاثة أعوام، تزود فيها من رحيق الإسلام، بسماحته، وأخلاقه، ومبادئه القويمة. كان إحساسه باليقن يزداد

كل يوم، وشعوره بالسكينة يتضاعف مع مرور الوقت، وأصبح يحلق بقلبه صفاءً بعدما كاد أن يفقده كمدًا. قضى تلك السنوات الثلاث ما بين الغرس، وجني ثمار اجتهاده في مجاله القديم، فالإسلام هو دين بناء في المقام الأول. استطاع يوسف بمعاونة رفاقه في قومية هوى تطوير بعض أجناس النبات وتعديل قدرتها الكفائية في الإنتاج، وظروف النمو، كما عدل بعض جينات النباتات الأخرى، لتشق طريقًا للحياة بصحراء الغرب الصينية. والأهم من ذلك، زهور قلبه التي رواها من رحيق الحب الأعظم، وزعها في تربة الصبر، وأشرقت عليها شمس يقينه، فاستحال القلب العاني قديمًا، كواحة الرمال في قلب صحراء (نينج شيا)، لكن شغفه بالتعلم، ونفسه التي تنازعه العلا، وقبس المزيد من النور، حدت به نحو السفر خارج الصين؛ فهمست بداخله وداعًا لا بد منه قبل الرحيل.

عاد يوسف أدراجه إلى جادة بوند، الجادة التي عرفها، وألف نسماتها العابرة، حفظ تتابع السير بها، لكنها الآن تبدو غير بوند التي عهد. التف الفتى من حوله في المكان، وسحب شهيقًا من داخل أعماقه، ثم صعد إلى الناطحة التي قطع فيها عهده الأول، وها هو اليوم يطرقها بعد ولادته الثانية. يطرقها كيوسف، بنفس يوسف، بصبره، بتعففه، بإيمانه، واعتقاده في الإصلاح، وأخيرًا انتهت الخطوات التي طالت، حتى وصل إلى باب المنزل، فطرق بابه الذي فارقه منذ أربع سنوات تقريبًا، فتحت له أيكو الباب التي لم تكد تحملها قدماها فرحًا، حبست أنفاسها واضعة يدها على فمها التي فغرت: بني!

ثم ضمته على الفور بحنان إلى صدرها باكيةً لتقول: لي تشانج، انظر من جاءنا اليوم! فهب الوالد محتضنًا ابنه، تنهمر دموع شوقه على كتف صغيره، معتذرًا إليه عن كل ما بدر منه في الماضي، واعدًا إياه بحياة هانئة هادئة، فأبلغهم الشاب باعتناقه الإسلام، الذي لم يكن ليخفى عليهم، كما باغتهم بفكرة سفره إلى الخارج فقال والده: لم يعد بوسعي إيقافك بعد الآن، فيبدو أنك حصلت السعادة التي تريد، فقط تذكر أن لك مكانًا بيننا متى أردت، ثم ودع كل منهما، كما ودع شنجهاي، ليتجه نحو مهبط التغيير في حياته (ووهان).

وكان أول مقصد فيها (جسر يانج سيانج)، وقف يوسف ينظر إلى النهر الذي كان سببًا في إعادة إحيائه، اللقاء الأول، وبالطبع الأخير. هاج بقلب الشاب العديد من المعاني المتداخلة والمتضاربة في آن واحد، حزن غير مبرر، حنين واشتياق كان يحاول إنكاره، فقد يصيبه بالجزع، مع بعض الغضب الذي سرعان ما تلاشى، مع ابتسامة الفتاة على صفحة اليانجتسي المتلألئة مع السهام المتوهجة، كانت تلك الابتسامة كفيلة بأن تعيد قطار ذكرياته بمحطاته كلها، حبه، إنكاره، صبابته، حزنه، واضطرابه، وأخيرًا نجاته وسعادته، وراحته التي لم يكن ليشعر بها من قبل. تنهد بعمق متذكرًا كلمات الفتاة "ستجدني عند باب اليقين"، وسمح لوجهه أن يوشي بنصف ابتسامة، ثم أردف قائلًا: "إن لذة الوصول تحمل كثيرًا من مشقة السير"، صدقت يا حمزة، الآن وعلى المكان الذي ضمنا لأول مرة، أعلن حبًا بداخلي أعظم من أي حب بالحياة. الحب الذي لو صحَّ؛ لهانت الحياة بما فيها.. اللهم هبني قلبًا مطمئنًا، لا يأنس إلى غير حبك، ولا يهنأ بعيدًا عن

جوارك، اللهم اجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء همي وغمي، اللهم هبني اليقين".

اليوم أحررك أيتها الفتاة وأحرر نفسي من قبلك من شباك الحب الفاني، وأطلق عنانينا نحو الحب الباقي، الحب الأعظم، الذي ستبرأ عنده كل أوجاعنا، وتباريح آلامنا. كل ما في الأمر يتلخص عند هذه الجملة (لو قدر لكان)، وأنا أيضًا سأودعك على أمل اللقاء في ساحة اليقين، على روحك كل السلام، كما حللت به على روحي..

ثم توجه الشاب تلقاء (هوانكو) المدينة التي بزغت منها شمس تغير مصيره. وصل إلى منزل الجد، فلم يجده كديدنه بالحديقة، سار باتجاه باب المنزل، فوجده مفتوحًا، استأذن للدخول مناديًا على جده، ولكن لا إجابة، دلف للداخل فلم يجد أحدًا، تجول في الأرجاء، فاشتم رائحة أوصلته لمكان الجد، وقف من بعيد يراقب طقوس الجد التي كان ينكرها من قبل، وزاد إنكاره لها الآن، تمنى في داخله لو أن الله يكشف سبحات الليل عن قلبه، وينير دربه، فكر في إعطائه الكتاب الذي أهدته الفتاة، ولكنه انقبض بمجرد تفكيره في الأمر، فقرر نسخه، وإهداءه قبسًا عله ينير له الدرب. وبعد قليل وعلى ذات حالة السكون التي يعيشها الجد تحدث إلى يوسف قائلًا: كين أنت هنا؟

_ تنحنح يوسف وأردف بخفوت: نعم جدي، هلا خرجت من فضلك؟

أقبل الجد ملتحفًا برداء رمادي داكن، يزحف بخطاه البطيئة، كماش فوق أرض الشوك، وما إن وصل إلى الدرج الخارجي للمكان، حتى قام يوسف

بمساعدته. مسح الجد بيد حانية قد سطرت حوادث الزمان جل تضاريسها على وجه الشاب، وابتسم قائلًا: يبدو أنك في حال أفضل، أو حال ممتازة، ما هذه الأنوار التي تنبعث من وجهك يا بني؟

أجلس الشاب جده على الكرسي الغير أسفل شجرة الدراق العتيقة وجلس إلى جواره قائلًا: إنها أنوار اليقين يا جدي.

_ كنت أعلم، لم يخلق الحب ليميت، بل ليبعث من الموت، وها أنت ذا، لقد ذاع صيت العالم المسلم المخترع بكافة أرجاء الصين، لقد جعلتني فخورًا بك يا بني، حقًا أتمنى لك التوفيق.

خلعت الابتسامة من بعض سماحتها على وجه يوسف مضيفًا: شكرًا لك جدي، ولكن هل لي بسؤال؟

_ بالطبع، وهل أنا هنا لغير الإجابة.. مازحًا.

_ أتساءل كيف عرفت بأنني هنا، وأنت مغمض العينين، منغمس إلى حد كبير فيما تقوم به بالداخل؟

ابتسم الجد ابتسامة عريضة، ولو كانت له نواجز لبدت، ثم ربت على صدر يوسف قائلًا: لقد عرفت هنا، نحن لا نحتاج في علاقاتنا للعين، فهي حاسة الإبصار، أما تلك المضغة الصغيرة فهي حاسة الإدراك والشعور، لا نحتاج أن نرى من نحب، ولكن نشعر بهم، تحاكيهم تلك النبضات من وقت لآخر، ترسم بداخلنا شعورًا يشبههم، يملأ ساحات الاشتياق الكبرى، وسدود الحنين القصوى. صدقني لو أن الحب منوط برؤية من نحب، لما دام أبدًا، ومن سلمت له الحياة بحلو اللقاء مطلقًا؟! إنني أرى حبيبتي

(أيكوو) كل لحظة تحيا بداخلي، مخالطة أنفاسي، نبض قلبي، الدم الذي ينبض بشرايني، الأنسام التي تطوف من حولي، وأنت في غنى عن قولي لمدة فراقنا أو كما يبدو، فالذي افترق منا هو الأجساد التي من شأنها للفراق والفناء من الأساس، لكن الذي يحيا، ليس من شأنه التبدد أبدًا، يخرج من كل عاصفة هوجاء، وطوفان مميت، وكارثة مروعة، إنه صدق الشعور يا ولدي، وهو الذي صيرك على ما أنت الآن (يوسف). التفت يوسف بذهول إلى جده، فأضاف الأخير: نعم، أنت يوسف، ألم أخبرك بأنك ذائع الصيت في البلاد؟

صدق شعورك ويقينك في اعتناق الإسلام، هو الذي صيرك على ما أنت عليه، لقد نشدت اليقين بداخلك، وها أنت قد حزته؛ لصدق قلبك، وشعورك به. أتمنى أن تحيا كيوسف، بصدق إيمانه، قوة يقينه، قوة احتماله، صبره منقطع النظير، حتى تُحَصِّلَ الملك الذي تروم، وإن كنت أرى أنك قد حزت قدرًا كبيرًا منه. ثم صمت الجد ويوسف مذهول تمامًا، لمعرفته بكل ما قال، "من أين له بكل تلك المعلومات والأحاديث عن يوسف عليه السلام، وكيف له أن يصل إلى تلك المرحلة من المعرفة؟!"

تردد قليلًا ثم قال: جدي، هلا أخبرتني من أين لك بهذه الكلمات التي ذكرت آنفًا؟

_ لقد اطلعت عليها في كتيب صغير، أهدتني إياه الفتاة بعد أول زيارة لها، في الحقيقة تعجبت كثيرًا عندما أهدتني قصة لنبي يسبق نبيها بكل هذه الفترة، توقعت أن تهديني كتابًا عن النبي محمد مثلًا، أو عن الإسلام، أو

طريق الحرير وما حدث على رحابه وفي ركابه، لكنها أهدتني كتابًا بعنوان، (عفة الصديق)؛ ليتبين لي بعد ذلك أن كل صلاح منشئوه من العفاف، عفة القلب التي تجعله يميل إلى الاعتقاد الصحيح، وعفة الروح التي تغادر جنح الشك والظلام، عفة الجوارح التي تأبى الانسجام في مراتع الشهوات الفانية، عفة النفس التي تحمل على صاحبها مفارقة كل رذيلة، إنها كلمة السر (العفة).

اتسعت حدقتي يوسف، رافعًا حاجبيه، مندهشًا بفيض الحكمة التي وهبها الجد، تردد نفسه، كيف لك بعد أن وصلت إلى تلك الدرجة، ولم تطرق باب الإيمان!؟

حبست الأنفاس لوهلة، ثم ابتسم الجد مربتًا على كتف حفيده: يوسف، هيا بنا للداخل، لا بد أن تحتاج إلى الراحة.

_ في الحقيقة يا جدي، ليس لدي الكثير من الوقت؛ فأنا مغادر في المساء، سأرحل عن رحاب الصين بأكملها، سأقصد إحدى الدول العربية للدراسة، حتى إذا استقرت لي نفسي، وهدأت لي حالي، ربما سأعود إذا قدر الرحمن.

_ لكن هذا لا يمنع أنك ستبقى هنا بداخلي، حتى إن قصدت دولة خارج مجال الأرض كلها، ستبقى هنا حيًا بداخلي، فمهما تباعدت المسافات، فمن بالقلب لا يغيبهم أي شيء، وأنا هنا حتمًا بانتظارك، ما يبد هذا الجسد الفاني!

دلف يوسف بصحبة جده للداخل، الذي لم يتغير كثيرًا عن آخر مرة، استلقى على سريره بغرفته المعهودة، وظل يفكر في حديث جده، تمنى من داخل أعماقه أن يشرح الله صدره للإسلام، تمنى أن يحمل بداخله من اليقين ما يجعله قادرًا على نقله لغيره، ومحاولة انتشاله من بئر الحيرة والريب. أخذ قسطًا يسيرًا من الراحة، ثم تناول بعض الطعام بصحبة الجد الذي أصر على ذلك، وعندما هم بالرحيل، أخرج الجد مطوية من صندوقه العتيق، دفعها إلى يوسف قائلًا: هذه لتعلم أنه ليس في كل وفاة فراق، وليس كل فراق يفضي للوفاة. نحن نحيا في أقدارنا، نمشي في ضجيج زحامها، لكن لو قدر لقاءنا، فحتمًا سنلتقي. ثم عانق الشاب باكيًا، تمنى له السعادة والتوفيق بدربه الطويل، ظل يمشي بجواره ممسكًا بيده حتى غادر بوابة البيت، فاستند إلى سور الحديقة، يودعه بنظرات باكية حتى توارى عن الأنظار.

كان الشاب يتحاشى الالتفات حتى لا يرى عبرات جده التي كانت تؤلمه، يحاول أن يكتم عبرات أخرى بداخله، لكنه لم يجد بُدًا من انهمارها بالنهاية حينما وصل إلى المكان الذي ودع به الفتاة، وقف بعيدًا إلى جوار تلك الحواجز المنيعة التي طوق بها رجال الأمن المكان، واضعين لافتة كبرى مدون عليها (ممنوع الاقتراب، منطقة محظورة). تتساقط العبرات بصمت من عيني يوسف. أراد أن يجعل من مكانها آخر عهده بتلك الربوع الخالية. ثم غمغم بصوت خافت: شكرًا لكِ على كل شيء، أتمنى لروحكِ النجاة من طوق المعاناة، ليعمكِ السلام، وتشملكِ الراحة، وتغشاكِ السكينة، لقد كنتِ وستظلين دائمًا حية بداخلي.. ربما لا أشعر بلك بالقدر الكافي، ولكن

لنا في الحلال لقاء، وداعًا أيتها الفتاة، وداعًا سوكي. ثم التفت مغادرًا فاصطدم بعجوز تبكي، فاعتذر منها بشدة، وحاول التخفيف عنها، لكنها أنكرت عليه بقولها: وماذا تعرف أنت عما أعاني، لقد فقدت أبنائي الثلاثة هنا بووهان، وأنا من (شيان) وأضطر إلى قطع تلك المسافة حتى أتمكن من زيارتهم. وبما أذنبوا؟ لقد توفوا فقط بهذا الوباء القاتل، انظر لما دون هناك منطقة محظورة، لقد جعلوا منهم تشير نوبل جديدة، ماذا قد فعلوا ليقوموا بتحنيطهم في قوالب خرسانية عملاقة، لو أنهم أعطوني رمادهم، حتى لا تتعرض تلك الأجساد الضعيفة للمعاناة؛ لكنت نثرته في مهب الريح، وأصابتنا الراحة جميعنا من تلك المعاناة والشقاء!

حاول يوسف التهوين عن العجوز، إن العذاب هو عذاب الأرواح لا الأجساد، صدقيني هذا هو أقسى ما قد يعذب به المرء، إنهم يشعرون بك حتى ولو لم تأتِ، إنما هي فقط أشياء نسلي بها عن أنفسنا. رمقته العجوز بعينها المنغلقة إثر سيل بكائها لتضيف: إليك عني، فأنت لم تشعر بما أصابني، فأجابها بوجوم: وما الذي أتى بي إلى هنا إذًا؟

ـ لا أدري، ولا أهتم حقًا، لقد مزقوا قلبي أشلاء، ثم واروه بالثرى، ولم يكتفوا بذلك، بل صبوا عليه أثقال الخرسانات العملاقة، وكلما هممت بالتسلل إلى الداخل، أجد من يجذبني، ممنوع الاقتراب، ممنوع الاقتراب من قلبي!

ـ حتى أنا أيتها الجدة، ممنوع عليَّ الاقتراب من قلبي الذي استلته مني الأقدار في أحوج ما أكون إليه، ولكن الحمد لله على كل حال. فرفعت

العجوز رأسها، ماسحة بأطراف أصابعها سيلها الجاري، وأضافت بدهشة: الحمد لله! هل أنت على ديانة الإسلام؟ تلك الكلمة التي ترددها جارتي المسلمة كلما سألت عن حالها. ابتسم الشاب بسماحة وأومأ برأسه: نعم. لكنها قاطعته قبل أن يضيف أية كلمة أخرى: لكن هذه اللحود، ليس أي منها لمسلمين.

_ اتسعت حدقتي الشاب: ومن أين لكِ بهذا أيتها الجدة؟

_ أنا هنا منذ أول لحد قدم إلى المكان، لقد كان أحد أبنائي، ثم كنت أتابع سجلات المشفى يوميًا عبر الهاتف، ولا أذكر أنني سمعت اسمًا لمسلم أبدًا. لقد كنت أتقصى الأمر، كل برهة إن شئت أن تقول، حتى وصلنا إلى حالة مثلى من التعافي، وأغلقت المشفى تمامًا، ثم ساد الصمت للحظات قطعتها العجوز بقولها: إن كنت لا تزال مرتابًا، من الممكن أن تفحص سجلات (هوهشنان).

لم يجبها يوسف بكلمة واحدة، حبست أنفاسه لبعض الوقت، ثم دس يده إلى داخل حقيبته، وأخرج مطوية صغيرة دفعها إلى العجوز قائلًا: أتمنى لكِ السلام.. ثم ابتسم بوجهها مدافعًا بعض العبرات وغادر المكان على الفور.

نظر يوسف إلى الساعة التي أشارت باقتراب موعد رحلته، لم يسعه الوقت للتفكير فيما قالته العجوز، دب يقين بداخله أنه لو قدر أن هناك ولو مجرد لحظات تجمعه بالفتاة؛ ستأتي بلا أدنى ريب. وأخذ يردد بداخله الآية التي كانت بمثابة كلمة السر لكل ما هو عليه الآن. ثم وصل إلى المطار، وأنهى

الإجراءات اللازمة، وبعد دقائق معدودة، صعد إلى متن الطائرة، ألقى نظرة وداع كل ذكرى جمعته ببلاده وموطنه، على بداية دربه الطويل، الذي يؤمل أن يعود إليه يومًا.

أمضى يوسف العشر ساعات التي قضاها بالرحلة ما بين القراءة، والنظر عبر النافذة، فالكون كله ينطق بالوحدانية الخالصة، لكنه فقط يحتاج إلى من يبصر ويتأمل، حتى هبطت الطائرة بمطار القاهرة الدولي، في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، كان يوسف مرهقًا بشدة، فحتى الساعات التي اختلستها جفونه للنوم، كانت مشوشة جدًا، كل ما كان يتردد بذهنه كلام تلك العجوز: قم بمراجعة سجلات (هوشنان)، لكنه كان يسلي نفسه بالآية التي كانت سببًا في نجاته، فلم يزل يكررها في ذهنه، حتى أنهى كل إجراءاته، وجاوز البوابة الضخمة، ليطلع على عالمه الجديد..

المئات من السيارات اصطفت في نظام دقيق، أشجار ترصف جانبي الطريق، شمس مشرقة بعبق الأصالة، وجوه مشرقة تحمل الطيبة والعطاء، تنفس يوسف بعمق مردفًا: هيا بنا، إلى أحد المراكز التي حملت للدنيا اليقين وصدرته إليها على مر الأزمان. ثم سار باتجاه سيارات الأجرة، يتتعتع بعربية غريبة: "أريد جامعة الأزهر، أذهب." كررها عدة مرات حتى استطاع سائق السيارة استيعاب ما يقول، فابتسم بوجهه قائلًا: نعم، لقد فهت ما تقصد.. فأومأ إليه يوسف مبتسمًا، وركب السيارة في الحال. كانت الابتسامة هي ما يكلل وجهه طوال الطريق. لم يحرك عينيه لوهلة عن النافذة، يطالع بشغف بالغ كل ما يبدو أمامه، علق حب مصر بقلبه منذ الوهلة الأولى، واستطاعت البشاشة التي تعلو الوجوه أن تملك أقطاره،

فأمضى نحو أربع سنوات، كل يوم كان تعلقه يزداد بها أكثر. تعلم العربية إلى حد كبير، حفظ قدرًا جيدًا من القرآن، لكنه كان فخورًا بذلك أكثر من أي شيء فعله من قبل. كانت همته دائمًا تردد "هل من مزيد؟" لاحت الفتاة بناظريه أكثر من مرة بجامعة الأزهر العريقة، وبالمسجد الشامخ المبارك، وقد كانت عادته أن يمضي يوم الجمعة بتلك الرحاب، لكنه كان في كل مرة تظهر فيها يتضرع إلى ربه بأن ينير دربه، وألا يعلق قلبه بحب زائف، وألا يشغل قلبه بغير ذكره، وأن يحفظه مما يعصف به هوى النفس.

وفي أصيل إحدى الجمعات المباركة، بدى للشاب أنه يرى وجهًا مألوفًا بالنسبة لديه، فأخرج من جيبه مصحفًا، وبدأ بتلاوة آيات من سورة يوسف، لكن هذا الوجه يقترب، كل لحظة تدنيه منه. أغمض يوسف عينيه وفتحهما على من يقف بوجهه مع تلك الابتسامة الرحبة: كين! هذا أنت حقًا؟ لا أصدق ما تراه عيناي مطلقًا. حبس يوسف أنفاسه لوهلة ناظرًا بعين محدثه مردفًا: ميسا... معذرة، حمزة! ثم وثب من مكانه واقفًا، وعانق صديقه الذي احتضنه طويلًا يردد: مبارك لك أخي، لا تدري كم السعادة التي أصابتني ما إن رأيتك، هذا أفضل ما حدث لي اليوم. ويوسف يربت بهدوء على ظهره، تنهمر العبرات من عينهما، في مشهد صادق للحب في الله. ثم جلسا يقص كل منهما على صاحبه أخباره وما آلت إليه شؤونه وأحواله، فتعجب حمزة لطول المدة التي أمضاها يوسف في رحاب الأزهر الهانيء جامعة وجامع، ولم يصادفه يومًا، فمازحه يوسف بقوله: إن لذة الوصول تنبع من مشقة السير، وها نحن ذا، لم نلتق ببلدنا، وضمتنا تلك الرحاب بعد كل تلك الفتر، حتى لو أننا رسمنا المخططات لذلك لم نكن لنفعل. إن ما

خط في أقدارنا أفضل بكثير مما اخترناه نحن لأنفسنا، إنها مقادير تسري، وحكم جليلة لا نصل إلى كنهها، لكن ما يقضي به الله هو الأفضل بالتأكيد.

نظر حمزة بإعجاب شديد نحو يوسف قائلًا: ما شاء الله، لقد تغيرت كثيرًا عن آخر لقاء لنا، حتى كلماتك ونظرتك للأمور، تبدو مختلفة تمامًا.. هنيئًا لك.

_ الحمد لله، لقد كنت حينها كين، أما اليوم فأنا يوسف.

_ أظهر حمزة حبورًا بالغ وسعادة غامرة متبعًا: ما شاء الله، يوسف، أسأل الله أن يجعل لك نصيبًا من اسمك. أريد أن أدعوك إلى منزلي المتواضع بالجمعة القادمة.

حاول يوسف الاعتذار كثيرًا، لكن حمزة أصر على دعوته، فقبل دعوته بالنهاية. جلس الرفيقان يتجاذبان أقاصيص الماضي، ثم لاحت الفتاة فجأة ترفل في ثوب فيروزي داكن، وقد وضعت حجابًا باللون الأسود، فازداد وجهها إشراقًا وتوهجًا وبريقًا، ارتبك يوسف إثر رؤيتها، وسماع صوتها، "إنها هي، لا يصل التشابه إلى حد التطابق التام.." كما أن تسارع هذا النبض بقلبه لا يأتي من فراغ، غض يوسف بصره مسرعًا، ردد بذاته "معاذ الله"، وأخذته ذاكرته إلى كلام العجوز السالف، ووداع الجد وحديثه، راح يردد بداخله: ليس كل موت فراق، وليس كل فراق يفضي إلى الوفاة، ربما كان بداية للحياة الحقيقية ونحن لا نعلم، ما الذي لا نعلم، يا مجير أجرني. حتى استطاع حمزة بعد فترة من الوقت أن يعيد إليه وعيه بقوله: هذه مريم ابنتي الصغرى، لقد أصرت على الحضور اليوم. ابتسم يوسف بحبور في

وجه الصغيرة التي بدت كملاك جميل، وأخذ يمازحها قليلًا، حتى أفلتت يده وهرولت نحو الفتاة التي تقف على استحياء في إحدى الزوايا بعيدًا، ثم ودع رفيقه الذي أخذ منه وعدًا بالزيارة. لم يستطع يوسف أن يتمالك نفسه للبقاء لبقية اليوم، أسرع بمغادرة المكان، عاد إلى منزله، ودلف سريعًا إلى غرفته، أغلق الباب، وشرع في الصلاة والتضرع لله، حتى اقتربت الليلة من منتصفها، جلس قليلًا على مكتبه، فتذكر المطوية التي دفعها جده إليه، قام يبحث عنها في محتويات حقيبته، فلم يستطع إيجادها بسهولة، فأفرغ تلك المحتويات وأخذ يبحث بشغف حتى توصل إليها بالنهاية، كان قد دسها بين الكتاب الذي أهدته الفتاة وهو لا يدري، التقط أنفاسه مردفًا: ها نحن ذا..

جلس يقرأ بدقة. الأحرف كانت باللغة العربية، الخط مضطرب بعض الشيء، هناك آثار لعبرات فاضت أثناء كتابة تلك الكلمات "السلام عليك، لقد قص علي الجد كل ما حدث. أنا لم أمت لكن أماتني الله بعينك وبقلبك؛ ليأذن بإحيائه من جديد، ليبعث بروحك ما يفوق الحب البائد بأضعاف، لتصل إلى يقينك بسعيك الصادق، ليس لأجل هوى زائف، أو عاطفة عابرة.. أتمنى أن تحط على شاطيء النجاة في أقرب وقت، وأن تحوز من كنت تؤمل من السعادة، وإن كتب في أقدارنا اللقاء؛ فحتمًا سيجود علينا الله به لأنه، ثم ختمت بالآية التي جعلت من دربًا لها تسير عليه، ووقعت بمداد أسود مريم التي طالما وسمتها بـ(سوكي).

انهمرت الدموع مع عينيه مع كل كلمة يقرأها، هاج في داخله ألف شعور وشعور، كان على يقين بجميل قدر الله، وحسن تدبيره للمرء، لكنه غص

بآخر ما جمعه بها، وهي الفتاة الصغيرة التي ركضت باتجاهها ممسكة بيدها بشدة، هل يمكن أن تكون طفلتها، هل فات الوقت دون أن أدري، الحمد لله على كل ألَمّتْ به أقداره، الحمد لله على كل حال، لو قدر لكان!

ثم جلس في حالة تامة من الصمت، لا يحرك ساكنًا، حتى أذن لصلاة الفجر، فانفض مبارحًا جلسته للصلاة، ودعى ما شاء الله أن يدعو به، لكنه قد آلف الفراق بحيث لم يعد ينسج للقاء أو الاقتراب خيوطًا، فكان أول ما افترضه ذلك.. وظل أسبوعا كاملًا يدعو بقوله: اللهم إنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم ألهمني من أمري رشدًا، اللهم قدر لي الخير حيث كان ثم ارضني به، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، اللهم لا تحملني ما لا طاقة لي به)

حتى تتابعت الأيام، وأشرقت شمس اللقاء، التي لم يحتمل انتظارها طويلًا، حتى حان وقت الزيارة، فصلى ركعتين، استودع فيهما نفسه وقلبه عند الله، وعقد التوكل وتفويض كل أموره إليه، ثم أسرع نحو العنوان الذي وسمه له حمزة، فاستقبله ذاك الأخير بحبور وسعادة بالغة، وأحسن استقباله على الوجه الأكمل. ثم حضر شاب ثلاثيني يبدو عليه أثر الوقار، ألقى التحية، معرفًا بنفسه: معاذ، الأخ الأكبر لحمزة، ثم أضاف مازحًا، كما أنني أخو زوجته، ثم جلس برفقتهم، وأخذهم الحديث نحو أودية شتى، ومواضيع كثيرة، حتى نظر يوسف لساعته التي أشارت إلى تأخر الوقت كثيرًا، فاستأذن للرحيل، فرافقه حمزة للخارج. دار بينهما حديث قد سرى عن نفسه كثيرًا، وطلب منه إيصال رسالة إلى معاذ، تخبره بزيارة للمنزل بعد يومين، إذا سنحت الأقدار، ثم ودع رفيقه بسعادة كبيرة، وقصد منزله لا

تكاد تحمله قدماه لفرط سعادته، كان يشعر أن يحلق مع نجوم الأفق البعيدة، يرسم رحلة سعادته التي طال انتظارها كثيرًا...

مر اليومان كدهر كامل، كل ثانية بمثابة قرن بالنسبة إليه، لكنه كان يسلي نفسه بترديد الآية دائمًا، حتى حل موعد اللقاء، فحمله الشوق إلى منزل مريم، جلس ينتظر قدومها كثيرًا بصحبة أخيها؛ فقد رفضت الأمر في البداية، لكن إصرار معاذ الزائد، وكون الضيف من بني جلدتهم هو ما دفعها أن تدخل رغمًا عنها، تردد بداخلها: إنها دقائق معدودة وينتهي هذا الكابوس.

وما إن حضرت الحسناء، حتى خلعت جمالًا على المكان، أجمل من البدر عند التمام، أقبلت تمشي على استحياء، لا تفارق عيناها موضع قدمها، تقدمت بوقار وسكينة حتى جلست إلى جوار معاذ، ولم ترفع ناظريها أبدًا...

حُبِسَتْ الأنفاس، توقفت نبضات الشاب إثر وصولها، انعقد لسانه عن الإفصاح، فاكتفى بعد بضعة دقائق بقوله المرتعش: لن أتحدث كثيرًا، ثم أخرج مطوية من جيبه الأيمن، تحمل عطر الياسمين، ووضعها مباشرة أمام الفتاة على الطاولة. ابتعلت الفتاة ما غص به حلقها، وتناولت المطوية بيدها المرتعشة توترًا، فتحتها وأخذت تقرأ بصمت.. "السلام عليك يامن حللت بالسلام، السلام عليك مريم، لقد توصلت إلى معرفة اسمك بالختام، وكيف لك أن تكوني غير مريم، عفافك، حياؤك، وقارك، غضيضة الطرف، ساكنة النفس، كيف لك أن تكوني غير مريم، هنيئًا لكِ بما صبرتِ، لقد

أبدلكِ الله يوسف يا مريم، لقد عوضكِ عن كين المتخبط بيوسف، سلام عليك بما صبرتِ، وكففتِ وعففتِ، سلام عليك بكل سلام أرسيتيه بكل نفس، كل خلق زرعتيه، روح بعثتها وأحييتها. أنتِ أمة في ذاتكِ، جعلكِ الله سببًا لنجاة الكثير، فهنيئًا لكِ.. ها أنا ذا، اليوم نلتقي في ساحة اليقين كما طلبت، كما دعوتِ، كما رجوتِ، كما تمنيتِ فتمنيتُ، ثم ختمها بالآية التي حملت سبب هدايته، وكانت سببا في إنهاء معاناته، وأن جمع الله بين قلبيهما "إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.."

ومع كل كلمة ترددها تنهمر العبرات على وجنتيها، في ذهول تام من حسن تدبيره سبحانه وكيف لهذا أن يحدث...

لكنه صدق موعوده سبحانه، وجميل جزاءه للصبر، ومكافأته للعفاف، وحسن مجازاته للتقوى، وفيض رحمته بقلوب اعتصمت به، وأحسنت التوكل عليه، والاعتصام به، لأنه وبكل بساطة [إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين]

تمت